جوانب القدوة الحسنة في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها

Aspek-aspek role model nyang jroh lam udep peut droe imum dan cara meuteumee manfaat dari awak nyan .

إعداد

د/أشرف شحته زناتي مرسي

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية

في كلية أصول الدين بالقاهرة

جوانب القدوة الحسنة في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها

أشرف شحته زناتي مرسي
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية-كلية أصول الدين القاهرة-جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني:Ashrafmorse.2011@azhar.edu.eg

الملخص:

هدفت الدراسة إلى إبراز جوانب القدوة الحسنة في حياة الأئمة الأربعة- رضي الله عنه- حيث كانوا قدوة حسنة في جوانب متعددة، قدوة حسنة في تلقيهم العلم وتعليمه، وقدوة حسنة في الزهد والتعبد والورع والتقوى والتعفف، وقدوة حسنة في نصحهم ودعوتهم إلى الله تعالى. كانوا قدوة للعلماء والجمهرة، الخاصة والعامة على وجه سواء.

وقد تناولت الدراسة في المبحث الأول: القدوة الحسنة في الجانب العلمي في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها. وفي المبحث الثاني: القدوة الحسنة في الجانب الروحي في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها. وفي المبحث الثالث: القدوة الحسنة في الجانب الأخلاقي في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

الكلمات المفتاحية: القدوة الحسنة، الأئمة الأربعة، الاستفادة.

Aspek-aspek role model nyang jroh lam udep peut droe imum dan cara meuteumee manfaat dari awak nyan.

Ashraf shehta zanati morsi
Jurusan Panggilan dan Budaya Islam - Fakultas Dasar-dasar Agama, Kairo - Universitas Al-Azhar
Email: Ashrafmorse.2011@azhar.edu.g

Abstract :
Kajian nyoe na tujuan untuk geupeuleumah aspek-aspek role model nyang jroh lam udep peuet droe imum nyan – seumoga Allah geubri rahmat keu gobnyan – sabab awaknyan nakeuh role model nyan jroh lam meupadum boh aspek, role model nyang jroh lam teurimong dan geupeurunoe ilme, role model nyang jroh . lam pertapaan, ibadah, taqwa, taqwa, dan kesucian, dan jeuet keu contoh nyang jroh lam naseuhat dan panggilan awaknyan keu Allah Nyang Mahakuasa. Awak nyan jeut keu contoh bagi para sarjana dan masyarakat, get swasta maupun umum.Lam bagian phon, penelitian nyan geuhadapi: role model nyang jroh lam aspek ilmiah lam udep peut droe imum dan kiban cara meuteume manfaat dari awak nyan. Lam bagian keudua: teuladan njang djroh dalam aspek rohani dalam hudép peuët droë imum dan pakriban cara meuteumé manfaat nibak awaknjan. Lam bagian keu lhee: teuladan nyang jroh lam aspek moral lam udep peuet droe imum dan pakriban cara meuteumee manfaat dari awak nyan.

Keywords: Teladan Nyang Jroh , Peuet Droe Imam , Meuteume Manfaat.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الحمـد لله رب العـالمين، ولـي الفقهـاء العـاملين، وناصـر أوليائـه المتقين، رفـع أولـي العلـم درجـات وحفـظ بهـم الـدين، ونشـر بهـم الخيـر فـي العالمين. والصلاة والسلام على أفضل رسله وخير خلقه أجمعين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن الإنسان يميل بفطرته نحو الاقتداء بالآخرين، فهذه طبيعة بشرية، ويؤكد ذلك أن الكثير من السلوكيات والقيم نكتسبها بالتقليد والمحاكاة. ومن هنـا نـدرك أهميـة القـدوة، خصوصًـا أن الكثيـر مـن النـاس لا تـؤثر فـيهم النصائح والتوجيهات بقدر ما يقتدون بأعمال الآخرين وتصرفاتهم وأفعالهم والتي يتبعونها بقصد أو من غير قصد.

إن القدوة تؤثر في قلوب الناس أكثر مما تؤثر الكلمة، مهما كانت الكلمة طيبة وجيدة ومؤثرة، ومما يدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر الصحابة الكرام عام الحديبية بالتحلل، فتأخروا عن المبادرة، قالت له أم المؤمنين السيدة أم سلمة–رضي الله عنها–: اخرج إليهم واحلق واذبح ففعل فتابعوه مسرعين[1].

من أجل هذا كان إنكار القرآن الكريم على الذين تخالف أفعالهم أقوالهم، إنكارًا عظيمًا، يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا

(١) انظر القصة بتمامها في صحيح الإمام البخاري، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق مصطفى البغا، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ١٩٣/٣، حديث رقم (٢٧٣١).

لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣,٢]، ويقول سبحانه: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وروى الشيخان عن أسامة بن زيد – رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: (يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ)[(١)].

وإن جميع الأنبياء والمرسلين –صلوات الله وسلامه عليهم – كانوا قدوة حسنة لأقوامهم، ولمن جاء بعدهم، وهذا يدل على عظم وأهمية القدوة الحسنة، يقول تعالى إشارة إلى أنبيائه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٩٠]، وكذلك كان النبي ﷺ: قدوة طيبة، وأسوة حسنة، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإن الله عز وجل الذي تكفل بحفظ الإسلام هيأ لنبيه ﷺ أصحابًا وأنصارًا حملوا الأمانة من بعده ورعوها حق رعايتها، ثم سار التابعون لهم بإحسان على طريقتهم ومنهجهم، وكانوا قدوة لغيرهم، ومن هؤلاء الذين حملوا الأمانة وبذلوا جهدهم وحياتهم في سبيلها: الأئمَّةُ الأربعة رحمهم الله، وهم:

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، دار إحياء التراث، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ب–ت، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، ٤/٢٢٩٠، حديث رقم (٢٩٨٩)، والأقتاب: الأمعاء.

(الإمام أبو حنيفة، الإمام مالك، الإمام الشافعي، الإمام أحمد ابن حنبل).

كانوا –رضي الله عنهم–قدوة حسنة في جوانب متعددة، قدوة حسنة في تلقيهم العلم وتعليمه، وقدوة حسنة في الزهد والتعبد والورع والتقوى والتعفف، وقدوة حسنة في نصحهم ودعوتهم إلى الله تعالى. كانوا قدوة للعلماء والجمهرة، الخاصة والعامة على وجه سواء.

ومن هنا آثرت أن أجمع جوانب القدوة الحسنة في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها في هذا الموضوع الذي جاء موسومًا بهذا العنوان:ـ **(جوانب القدوة الحسنة في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها).**

وحين أخص هؤلاء الأئمة الأربعة بالدراسة، فإني لا أغض من شأن أئمة آخرين أصحاب فكر ودين، فعلماء المسلمين الذين بلغوا مبلغ الإمامة في علمهم وفقههم وورعهم وسلوكهم من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤهم، ومن الوفرة بحيث يمتنع استقصاؤهم.

أولًا: أهمية الموضوع:

تتضح أهمية الموضوع في الآتي:

١-أهمية القدوة الحسنة كوسيلة ناجحة ومؤثرة من وسائل تبليغ الدعوة وجذب الناس إلى الإسلام، والشاهد على ذلك انتشار الإسلام في الكثير من البلاد التي لم يصلها الفتح الإسلامي، والأئمة الأربعة نموذج للقدوة الحسنة.

٢- الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة محط آمال العقلاء وغاية أمانيهم، فهي الأمل الكبير في إصلاح النشء والمجتمع، والأئمة الأربعة كانوا قدوة حسنة مؤثرة، وقاموا بدور كبير في ذلك .

٣- القدوة الحسنة الممتثلة للفضائل تعطي قناعة للآخرين بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة التي هي في متناول قدرة الإنسان، وليست من الأمور الخيالية أو المستحيلة.

٤-إيصال المفاهيم الصحيحة للجماهير وتوعيتهم من خلال القدوة أيسر على الدعاة والمصلحين؛ لأن مستويات الفهم للكلام عند الناس متفاوتة، ولكن الجميع يستوون أمام الرؤية بالعين المجردة.

٥-القدوة الحسنة تحمي المجتمع من انتشار السلوكيات السلبية والأخلاق السيئة، وهو ما يؤدي بدوره إلى انتشار الاستقرار والأمان بين أفراد المجتمع.

ثانيًا: أسباب اختيار الموضوع:

١- الحاجة الماسة في هذا العصر إلى معرفة سمات القدوة الحقيقية التي يبحث الناس عنها؛ كي تصلهم بالله عز وجل، وذلك كما كان الأئمة الأربعة ﷺ.

٢-الحاجة إلى بيان الأساليب المناسبة لعرض الدعوة، وحاجة الدعاة إلى معرفتها، والإلمام بها؛ لأنها العامل المؤثر في استجابة المدعو، ومن أهم هذه الأساليب: الدعوة من خلال القدوة الحسنة.

٣-توجيه الأنظار إلى مكانة الأئمة الأربعة، وكيف أنهم كانوا قدوة حسنة في العلم والعمل.

٤-محاولة إثراء المكتبة الإسلامية بهذا البحث، وإضافة شيء جديد إلى المكتبة والقراء.

ثالثًا: تساؤلات البحث:

تأتي هذه الدراسة للإجابة على هذه التساؤلات:

١-ما مفهوم القدوة الحسنة.

٢-من الأئمة الأربعة.

٣-ما القدوة الحسنة في جانب تلقي العلم في حياة الأئمة الأربعة.

٤- ما القدوة الحسنة في جانب تعليم العلم في حياة الأئمة الأربعة.

٥- ما القدوة الحسنة في الجانب الروحي في حياة الأئمة الأربعة.

٦- ما القدوة الحسنة في الجانب الأخلاقي في حياة الأئمة الأربعة.

رابعًا: منهج البحث:

سيسير هذا البحث وفق أربعة مناهج وهي:

١-المنهج الاستقرائي: وهو البحث في الجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة[١].

٢- المنهج الاستنباطي: وفيه يربط العقل بين المقدمات والنتائج على أساس المنطق والتأمل الذهني[٢].

٣-المنهج الوصفي: وهو القائم على جمع المعلومات حول قضية معينة؛ لتفسيرها وتحليلها والوقوف على جوانبها المختلفة من أجل الحصول على نتائج علمية، ثم تفسيرها بطريقة موضوعية، بما يتسم مع المعطيات الفعلية للظاهرة[٣].

وقد استخدمت هذه المناهج الثلاثة، فقمت بجمع المعلومات المتفرقة عن الأئمة الأربعة، والربط بين جزئياتها؛ والوصول إلى قضايا عامة، وقمت بتحليل هذه القضايا وتفسيرها، إلى أن توصلت من خلالها إلى نتائج هذا البحث.

---

(١) انظر: د/ حلمي عبد المنعم صابر، مناهج البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، مكتبة الإيمان، ط٢- ١٤٣٥هـ -٢٠١٤م، ص٥٢.

(٢) محمد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، مطبعة خالد الطرابيشي، ١٣٤١هـ، ص ١٤ .

(٣) البحث العلمي أساسياته وممارسته العملية، رجاء وحيد دويدي، دار الفكر المعاصر، ص ١١٣.

٤- المنهج التاريخي[١]:

وقد استخدمت هذا المنهج حين تعرضت للجانب التاريخي المتعلق بحياة الأئمة منذ الميلاد والنشأة، وما أعقبها من مراحل تاريخية حفلت بالجهود العلمية والعملية.

خامسًا: أهداف البحث:

١-بيان أهمية القدوة الحسنة ودورها في نجاح الدعوة وسرعة استجابة المدعوين، ودور الأئمة الأربعة في ذلك.

٢- التأصيل للقواعد التي لابد منها للداعية وغيره ممن يكون في موقع القدوة، والتحذير من الوقوع في مبطلاتها؛ كي لا يكون قدوة سيئة يقتدي به الناس في الشر والضلال، وبيان مدى التزام الأئمة الأربعة بهذه القواعد.

٣- بيان دور الأئمة الأربعة في نشر القيم الفاضلة والمبادئ الحقة التي تحتاج إلى من يتبنى نشرها في المجتمع الإنساني، ويبشّر بها ويدعو الناس إليها.

سادسًا: الدراسات السابقة:

لقد تعددت الدراسات التي تناولت حياة الأئمة الأربعة وجهودهم في خدمة الإسلام، لكني لم أقف على دراسة بهذا العنوان الذي يتناول جوانب

---

(١) يقوم المنهج التاريخي في البحث على أساس دراسة أحداث الماضي وتفسيرها وتحليلها بهدف التوصل إلى قوانين عامة تساعدنا على تحليل أوضاع الحاضر والتنبؤ بالمستقبل، وهو بذلك يصف الحوادث بطريقة موضوعية، ويحاول أن يربطها في سياق زمني من أجل تقديم قصة مستمرة من الماضي إلى الحاضر والمستقبل. د/ عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مكتبة وهبة، ط٨، ١٩٨٢، ص٢٦٨.

القدوة في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

ومن الرسائل العلمية التي تناولت الجانب الدعوي في حياة الأئمة الأربعة:

١-منهج الإمام أبى حنيفة فى الدعوة الاسلامية:

رسالة ماجستير سنة ٢٠٠٤م، كلية الدعوة الإسلامية (قسم الثقافة الإسلامية).

الباحث/ محمد عبد الفتاح عبد الجليل

إشراف: أ.د/ يوسف محمد يوسف عيد- أ.د /حسن عبد الغنى حسان

٢-الإمام مالك بن أنس ومنهجه فى الدعوة الى الله تعالى:

رسالة ماجستير سنة ١٤٠١هـ-كلية أصول الدين بالقاهرة

الباحث/ محمد على أسعد المالكى

إشراف: أ.د / الحسينى اسماعيل أبو فرحة، أ.د / محمد عبد الغنى شامة.

٣- الإمام الشافعي ومنهجه فى الدعوة الإسلامية:

رسالة دكتوراه سنة ١٩٨٤م- كلية أصول الدين بالقاهرة

الباحث: د/ عبد القادر سيد عبد الرؤوف

إشراف: أ.د / محمد عبد الغنى مرسى شامة- د / مصطفى عثمان محمد

٤-منهج الإمام أحمد بن حنبل فى الدعوة الى الله تعالى:

رسالة ماجستير سنة ١٩٨٣م-كلية أصول الدين بالقاهرة.

الباحث/ محمد سيد أحمد عامر إشراف/ أ.د / أحمد السيد الكومى

وقد اهتمت هذه الدراسات ببيان منهج الأئمة الأربعة في الدعوة إلى الله تعالى، بينما ركزت هذه الدراسة التي بين أيدينا على جوانب القدوة الحسنة في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

سابعًا: تقسيم الدراسة:

تأتي هذه الدراسة مشتملة على: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ثم ثبت المراجع، والفهارس.

المقدمة: وتشتمل على: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وتساؤلات البحث، ومنهج البحث، وأهداف البحث، والدراسات السابقة، وتقسيم الدراسة.

التمهيد: ويشتمل على: التعريف بمفردات عنوان البحث.

المبحث الأول: القدوة الحسنة في الجانب العلمي في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

ويشتمل على مدخل ومطلبين:

المطلب الأول: القدوة الحسنة في تلقي العلم في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

المطلب الثاني: القدوة الحسنة في نشر العلم في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

المبحث الثاني: القدوة الحسنة في الجانب الروحي في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: أهمية تزكية الروح في بناء القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: القدوة الحسنة في جانب النفس والروح في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

المبحث الثالث: القدوة الحسنة في الجانب الأخلاقي في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: أهمية الأخلاق في بناء القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: القدوة عند الأئمة الأربعة في التخلي عن الأخلاق السيئة والتحلي بالأخلاق الحسنة .

والخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات، ثم ثبت المراجع والفهارس

سائلًا المولى عز وجل التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي، إنه خير مأمول، وأكرم مسئول، وهو حسبي ونعم الوكيل.

التمهيد

تحرير مفردات عنوان البحث

لعل من المناسب أن أعرف بمفردات عنوان البحث قبل الشروع في المباحث الرئيسة، وهذه المفردات، كالآتي:

أولًا-القدوة الحسنة.

ثانيًا-الأئمة الأربعة.

أولًا: تعريف القدوة

القدوة في اللغة:

القدوة بضم القاف وكسرها: بمعنى الأسوة، والضم أكثر من الكسر، وهي اسمٌ من: اقتدى به إذا فعل مثل فعله تأسيًا، وفلانٌ قدوةٌ، أي: يقتدى به[(١)].

والقَدْوُ أَصل البناء. والقدوة أيضًا: التقدم، ويقال: فلان لا يقاديه أحدٌ ولا يماديه ولا يباريه ولا يجاريه، وذلك إذا برز في الخلال كلها. وتقدت به دابته: لزمت سنن الطريق[(٢)].

وقَدا اللحمُ والطعامُ يَقْدُو قَدْواً وقَدى يَقْدي قَدْياً وقَدِيَ بالكسر يَقْدى قَدًى كله بمعنى إذا شَمِمْت له رائحة طيبة، وما أَقْدى طعامَ فلانٍ أَي ما أَطْيَبَ طَعْمه ورائحته[(٣)].

---

(١) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية – بيروت، ٤٩٤/٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ، ١٧١/١٥-١٧٢.

(٣) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م، ٦/ ٢٤٥٩.

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن القدوة في اللغة تطلق ويراد بها:

-الاقتداء والتأسي.

-الأصل والأساس.

-التقليد والمحاكاة.

-التقدم والسبق.

-الاعتدال وعدم الانحراف.

-الرائحة الطيبة.

والمعني الأقرب هنا هو المعنى الأول وهو: الاقتداء والتأسي، ولا يمنع أن تكون بقية المعاني صفات للقدوة، فهو أصل يتبع، وهو مستقيم غير منحرف، ومتقدم على غيره، وسيرته طيبة، وأعماله صالحة، ورائحته ذكية.

القدوة في الاصطلاح:

القدوة في الاصطلاح: (الاقتداء بالغير ومتابعته والتأسي به)[١].

وقيل: (الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسنًا وإن قبيحًا، وإن سارًّا وإن ضارًّا)[٢] .

فالقدوة كالأسوة، وهي اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها، حسنةً أو قبيحة.

وقيدت القدوة بالحسنة؛ لأن القدوة إذا أطلقت احتمل معناها أمرين: القدوة الحسنة أو السيئة، وهما نوعا القدوة والأسوة.

---

(١) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص ٢٦٩.

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، ط١ - ١٤١٢هـ، ص ٧٦.

فالقدوة الحسنة: هي الاقتداء بالصالحين–وعلى رأسهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم–، في أمور الخير، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والقدوة السيئة: هي اتباع أهل السوء، والاقتداء بهم، والسير في سبيلهم، من غير حجة أو برهان.

ثانيًا: الأئمة الأربعة...

المقصود بهم: أئمة المذاهب الأربعة المقتدى بهم في الإسلام والمعتمد على أقوالهم وفقههم بين الأنام.

وهؤلاء الأئمة بحسب ظهورهم بالترتيب هم:

١– **فقيه الملة، عالم العراق، الإمام أبو حنيفة**(١) النعمان بن ثابت التيمي الكوفي.

ولد رضي الله عنه سنة ٨٠ من الهجرة النبوية الشريفة.

يلقب بـ"الإمام الأعظم"، اشتهر بعلمه الغزير وأخلاقه الحسنة، ويعد أول من دون علم الشريعة ورتبه أبوابًا.

(١) سبب تسمية الإمام بأبي حنيفة: قيل بسبب كثرة ملازمته للدواة أو المحبرة التي منها يُستمدّ الحبر للكتابة، والمحبرة بلغة أهل العراق قديمًا كانت تسمّى "بالحنيفة"، فأبو حنيفة لقبٌ أطلق عليه؛ ليدل على غزارة علمه –رحمه الله–، وممّا قيل في سبب تلقيبه بأبي حنيفة؛ أنّ "حنيفة" مؤنث "حنيف"، وهو الناسك العابد أو المائل إلى دين الإسلام، وقيل إنّ له بنتًا اسمها حنيفة، وهذا القول الثالث أضعفها؛ لأنّه لا يُعرف له من الأبناء إلا حمّاد. الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، ابن حجر الهيتمي، مطبعة السعادة، القاهرة، ص٢٤.

قال عنه الإمام الذهبي[١] رحمه الله : " برع في الرأي، وساد أهل زمانه في التفقه، وتفريع المسائل، وتصدر للاشتغال، وتخرج به الأصحاب، وكان معدودًا في الأجواد الأسخياء، والألباء الأذكياء، مع الدين والعبادة والتهجد، وكثرة التلاوة وقيام الليل، رضي الله عنه"[٢].

وقد تُوفِّي في بغداد سنة (١٥٠هـ= ٧٦٧م) وله سبعون سنة[٣].

٢- الإمام مالك- رضي الله عنه-:

هو شيخ الإسلام، وحجَّة الأمَّة، وإمام دار الهجرة، أبو عبد الله، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي، وُلِد في المدينة على الأرجح عام (٩٣هـ= ٧١٢م)، ويُعتبر -رحمه الله- إمام أهل الحجاز في عصره وإليه ينتهي فقه المدينة، وقد أجمع العلماء على أمانته ودينه وورعه، وشهد له جميع الأئمَّة بالفضل.

وقد ذاع صيت مذهبه في جميع الأقطار، فرحل الناس إليه من كلِّ مكان، وظلَّ يعلم ويفتي قرابة سبعين عامًا.

---

(١) الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله التركماني، ولد سنة ثَلَاث وَسبعين وسِتمِائَة، وطلب الحديث وله ثماني عشرة سنة، من تصانيفه: كتاب سير أعلام النبلاء، ومختصر تهذيب الكمال للمزي، وغيرهما، ت ٧٤٨هـ. انظر: طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ١٠٥/٩.

(٢) انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م ، ٩٩٠/٣.

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ٣٩٠/٦-٤٠٣.

قال عنه القاضي عياض[١] رحمه الله:

عاش رحمه الله نحو التسعين سنة، كان فيها إمامًا يروي ويفتي ويسمع قوله نحو سبعين سنة، تنتقل أحواله في كل حين زيادة في الجلالة، ويتقدم في كل يوم علوه في الفضل والزعامة حتى مات، وقد انفرد منذ سنين، وحاز رئاسة الدنيا والدين دون منازع[٢].

وقد مات الإمام رحمه الله في المدينة سنة (١٧٩هـ= ٧٩٥م)، وله من العمر خمس وثمانون سنة[٣].

٣- الإمام الشافعي-طيب الله ثراه:

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله، إمام عصره وفريد دهره، وأحد الأئمَّة الأربعة، وإليه نُسِبت الشافعيَّة كافَّة.

وُلِد عام (١٥٠هـ= ٧٦٧م) في غزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، أقبل منذ صغره على تعلم اللغة العربية والأدب -خاصَّةً الشعر- وبرع فيهما، كما برع في الرمي حتى صار يُصيب من العشرة عشرة، ثم أقبل على تعلُّم الفقه والحديث على يد الإمام مالك وسفيان بن

---

(١) أبو الفضل عِيَاضُ بنُ مُوْسَى بنِ عِيَاضِ بنِ عَمْرِو بنِ مُوْسَى بنِ عِيَاضٍ اليَحْصَبيُّ. وُلِدَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِيْنَ وأربع مائة. لَمْ يَحمل القَاضِي العِلْم فِي الحدَاثة، رَحل إِلَى الأَنْدَلُسِ سَنَة بِضْع وَخَمْس، وَاستبحر مِنَ العُلُوْم، وَجَمَعَ وَأَلَّفَ، وَوَلِيَ القَضَاءَ وَلَهُ خَمْس وَثَلاَثُوْنَ سَنَةً، مِنْ تَوَالِيْفِهِ، كِتَاب "الشفَا فِي شرف المُصْطَفَى" ، وَكِتَاب "تَرْتِيْب المدَارك وَتَقْرِيْب المسَالك فِي ذكرِ فُقَهَاء مَذْهَب مَالِك" وغيرهما، توفي: ٥٤٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ١٥/٤٩-٥٠.

(٢) انظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ١/١٢٧.

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٧/١٥٠-٢٠٠.

عيينة وغيرهما من العلماء.

وكان ذكيًّا مفرطًا حتى إنَّه حفظ القرآن في سنِّ السابعة، وحفظ موطأ الإمام مالك في سنِّ العاشرة، وأفتى وهو ابن عشرين سنة.

قال عنه الإمام الذهبي رحمه الله: الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، ...، نسيب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ساد أهل زمانه، وصنف التصانيف، ودون العلم، ورد على الأئمة متبعًا الأثر، وصنف في أصول الفقه وفروعه، وبعد صيته وتكاثر عليه الطلبة[١] .

قصد مصر في سنة تسعة وتسعين ومائة (١٩٩هـ)، وظلَّ بها إلى أن تُوفِّي سنة (٢٠٤هـ= ٨٢٠م) وعمره أربعٌ وخمسون سنة[٢].

٤-الإمام أحمد ابن حنبل-رحمه الله-:

هو الإمام البارع، شيخ الإسلام وسيِّد المسلمين، المجمع على جلالته وإمامته وورعه وزهادته وحفظه ووفور علمه وسيادته، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني.

وُلِد في بغداد سنة (١٦٤هـ= ٧٨٠م) ونشأ بها، وطلب العلم وسمع الحديث من شيوخها، وحفظ القرآن، وتعلَّم اللغة، ثم بدأ في رحلات طلب العلم، فذهب إلى الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام، والجزيرة، وكتب عن علماء ذلك العصر.

كان الإمام أحمد مجتهدًا وبرز على أقرانه في حفظ السنة وجمع شتاتها حتى أصبح إمام المحدِّثين في عصره، وكان قوي العزيمة صبورًا ثابت الرأي قوي الحجة.

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٣٦/٣.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ٢٦٧/٥١.

قال عنه أبو عبيد القاسم بن سلام[١] -رحمه الله تعالى-: (ذاك رجل من عمال الله، نشر الله رداء عمله، وذخر له عنده الزلفى، أما تراه محببا مألوفا، ما رأت عيني بالعراق رجلا اجتمعت فيه خصال هي فيه، فبارك الله له فيما أعطاه من الحلم والعلم والفهم)[٢].

تُوفِّي ببغداد سنة (٢٤١هـ= ٨٥٥م) وله سبعٌ وسبعون سنة[٣].

منزلة الأئمة الأربعة:

الأئمة الأربعة اتفق على إمامتهم جميع المسلمين، وشهدت الأمة لهم بالعدالة والديانة والرسوخ في العلم، ولم يكن بينهم خلافٌ في المعتقد وأصول الدين؛ وإنَّما وقع الخلاف بينهم في بعض فروع الشريعة وجزئياتها، والمسائل الفرعية التي اختلفوا فيها هي التي كونت المذاهب الفقهية الأربعة (الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي).

والأئمة الأربعة كانوا من أفضل أهل زمانهم -رضي الله عنهم-، وعاشوا في خير القرون، القرون الثلاثة التي شهد النبي صلى الله عليه وسلم بأنها خير القرون.

فلم يكونوا -كما يقول بعض العلماء[٤]- مجرد فقهاء يوضحون

---

(١) القاسم بن سلام البغدادي، أَبُو عُبَيد الفقيه القاضي الأديب المشهور صاحب التصانيف المشهورة، والعلوم المذكورة، منها: "غريب الحديث"، وغيره، توفي بمكة سنة أربع وعشرين ومئتين. انظر: الحافظ المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، ٢٣/٣٥٤-٣٥٧.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/٢٠٠.

(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ٢/١٥-١٨.

(٤) مصطفى الشكعة، الأئمة الأربعة، دار الكتاب المصري القاهرة، ط٣، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص أ من المقدمة.

للمسلمين قضايا دينهم ويستنبطون أحكام شريعتهم –ولو كانوا كذلك فقط لكفاهم– ولكن كانوا رواد فكر، وفرسان كلمة، ودعاة إصلاح، ومؤثلي مجد، ومحققي عدل، وضعوا أنفسهم مواضع التكريم، ونأوا بها عن مواطن الريب في دنيا الفكر، وانتظموا قافلة الكرام من القادة، يضيئون للناس الطريق، وينيرون لهم السبيل، مهما كان الطريق صعبًا والسبيل غير ممهد.

وهذه حقيقة لا مراء فيها، فالأئمة الأربعة قاموا بدور مهم في خدمة الإسلام، ودراسة علومه، وفهم أحكامه واستنباطها من مصدرها الصحيح ومنبعها الصافي: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، كما قاموا بنشر هذه العلوم بين المسلمين، فاستنارت بهم الأمة في شئون دينها ودنياها، ونهضت في ثقافتها علمًا وخلقًا، وازدهرت بهم الحياة، رحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء...ولهذه المكانة العظيمة والتشابه الواضح بينهم في القدوة والديانة، آثرت أن أجمع بينهم في هذا البحث العلمي.

ولأهمية العلم وكونه حجر الأساس في بناء القدوة، بدأت الحديث عنه من خلال المبحث الآتي:

المبحث الأول
القدوة الحسنة في الجانب العلمي في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها

ويشتمل على مدخل ومطلبين:

المطلب الأول: القدوة الحسنة في تلقي العلم في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

المطلب الثاني: القدوة الحسنة في نشر العلم في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

مدخل:

من الصفات التي ينبغي على كل مسلم أن يحرص عليها ويتحلّى بها، ومن باب أولى القدوة الحسنة: صفة العلم، فبالعلم النافع يهتدي المسلم إلى الاعتقاد الصحيح، وتزداد معرفته بالله تعالى، ويزيد يقينه في قدرته وبديع صنعه وحكمته. وبالعلم النافع يعرف المسلم أحكام الحلال والحرام، وكيفية العبادة الصحيحة والمعاملة السليمة. والعلم ضروري للقدوة يحفظه من موارد الهلكة والوقوع في المحظورات. وبالعلم يعرف خطورة موقعه وأهميته كقدوة حسنة للناس. والعلم يحميه من التقول على الله والافتراء عليه، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وبالعلم يزاد المسلم خشية لله تعالى، وتظهر آثار هذه الخشية على تصرفاته وسلوكه، وكلما ازداد علمًا ازداد لله خشية، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر: ٢٨].

فالعلم ضروري للقدوة حتى لا يأتم الناس به في الباطل ويتبعوه في الغي، فيضلوا كما ضل.

فالقدوة الحسنة يجب عليه أن يتشبع بالعلم النافع، ويشرب من معينه الصافي، وهكذا صنع الأئمة الأربعة، نشأوا في محراب العلم منذ نعومة أظفارهم، وأفنوا أعمارهم في رحابه؛ حتى ملأ علمهم طباق الأرض، وجاب الآفاق، وشهد لهم بغزارة العلم القاصي والداني...

فهذا الإمام أبو حنيفة –رحمه الله تعالى– يقول عنه الإمام الشافعي: (الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة)[١]. وقال ابن المبارك: (أبو حنيفة أفقه الناس)[٢].

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤٠٣/٦.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

وأما عن علم الإمام مالك، فإنَّ كثيرًا مِنْ علماءِ التَّابعينَ[١] قَالُوا إنَّ الإمامَ مالكًا رضي الله عنه هو الذي عناه النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: " يُوشِكُ أنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أكبادَ الإبِلِ فلا يَجِدُونَ أَعْلَمَ مِنْ عالِمِ المدينة" [٢].

وكان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول: "ما أحد أمسك في يده محبرة وقلمًا إلا وللشافعي في عنقه مِنَّة"[٣].

وعن سعة علم الإمام أحمد يقول الإمام الشافعي: (خرجت من العراق وما خلفت بها أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل)[٤].

وهذه الشهادات تدل على سعة وغزارة علم الأئمة الأربعة رضي الله عنهم، مما أهلهم للريادة، وجعلهم أئمة يقتدى بهم.

والآن أنتقل إلى بيان جوانب القدوة الحسنة في تلقي العلم في حياة الأئمة الأربعة، وذلك من خلال المطلب التالي:

---

(١) منهم على سبيل المثال: سفيان بن عيينة–رضي الله عنه–حين سئل من عالم المدينة؟ فقال: "إنه مالك بن أنس"، وسفيان ابن عيينة من كبار العلماء، توفي سنة ١٩٨ للهجرة. وضرب أكباد الإبل: كناية عن السير السريع؛ لأن من أراد ذلك يركب الإبل ويضرب على أكبادها بالرجل. وهذه شهادة عظيمة في حق الإمام مالك رضي الله عنه. انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري، دار الكتب العلمية – بيروت، ٣٧٣/٧.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، في أبواب العلم، باب ما جاء في عالم المدينة، ٣٤٤/٤، حديث رقم (٢٦٨٠)، وقال: هذا حديث حسن. وضرب أكباد الإبل: كناية عن السير السريع؛ لأن من أراد ذلك يركب الإبل ويضرب على أكبادها بالرجل. وهذه شهادة عظيمة في حق الإمام مالك رضي الله عنه.

(٣) ابن عبد البر في الانتقاء ص١٢٩، والبيهقي في المناقب ٢٥٥/٢، والذهبي في سير الأعلام ٤٧/١٠، وابن حجر في توالي التأسيس ص٥٧.

(٤) الخطيب في تاريخ بغداد ٤١٩/٤، وابن الجوزي في المناقب ص١٤٥، والمزي في تهذيب الكمال ٤٥١/١، والذهبي في سير الأعلام ١٩٥/١١.

المطلب الأول

القدوة الحسنة في تلقي العلم في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

هناك منهجية سديدة في تلقي العلم، لا بد وأن يسير عليها طالب العلم ولا يتجاوزها، وهذه المنهجية مستفادة من النصوص القرآنية والتوجيهات النبوية، والأئمة الأربعة لم يتجاوزا هذه المنهجية ولم يحيدوا عنها، بل التزموها منذ بداية طلبهم للعلم وانشغالهم به، مما جعلهم أهلًا للاقتداء بهم في رحلتهم العلمية.

ومن أسس هذه المنهجية:

١-الإخلاص وحسن النية في طلب العلم:

لابد في طلب العلم من الإخلاص لله تعالى وحسن النية وسلامة القصد، والابتعاد عن الرياء والسمعة وحب الظهور والتفوق على الآخرين، فالعلم عبادة من أجل العبادات، والإخلاص وحسن النية شرط لقبول العبادات، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ...﴾ [البينة: ٥]، وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)[(١)].

ومن النوايا الصالحة في طلب العلم، كما يقول الإمام ابن جماعة[(٢)]:

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب (الأيمان والنذور)، باب (باب النية في الأيمان)، ٢٠/ ٣٨٧، حديث رقم (٦١٩٥)، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب (الإمارة)، باب (قوله -صلى الله عليه وسلم- « إنما الأعمال بالنية » وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، ٤٨/٦، حديث رقم (٥٠٣٦).

(٢) بدر الدين بن جماعة أبو عبد الله الكناني الحموي، شيخ الإسلام وقاضي القضاة =

أن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به وإحياء الشريعة، وتنوير قلبه وتحلية باطنه والقرب من الله تعالى يوم القيامة والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه وعظيم فضله. ولا يقصد به الأغراض الدنيوية من تحصيل الرياسة والجاه والمال، ومباهاة الأقران، وتعظيم الناس له، وتصديره في المجالس ونحو ذلك، فيستبدل الأدنى بالذي هو خير[1].

وقد جاء الوعيد الشديد لمن طلب العلم بقصد الرئاسة والظهور، ففي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ)[2].

والإخلاص وإن كان سرًا بين العبد وربه، لا يطلع عليه ملك مقرب، أو نبي مرسل، إلا أن له أمارات تظهر حسن نية صاحبها، ومنها: الابتعاد عن الشهرة، وقبول نصيحة الغير، والفرح بظهور الكفاءات، والفرح بظهور الحق ولو من غيره، ومنها عدم التعصب للرأي، والرجوع إلى الحق والخضوع له.

وقد بدت هذه الأمارات واضحة في حياة الأئمة الأربعة العلمية، فكانوا أبعد الناس عن السمعة والرياء وحب الشهرة والظهور، ولم يعلم أنهم تعصبوا لآرائهم، بل نقل عنهم جميعًا هذه المقولة المشهورة: إذا صح الحديث فهو

=

في الشام ومصر وخطيب المسجد الأقصى والجامع الأزهر والجامع الأموي، ت:٧٣٣هـ. انظر: ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ٢/٢٨٠.

(١) انظر: ابن جماعة، تذكرة السامع، مكتبة مشكاة الإسلامية، صـ٣٥.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، في أبواب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا، ٤/٣٢٩، رقم (٢٦٥٤)، وقال هذا حديث غريب.

مذهبي. وكل هذا دليل على الإخلاص وحسن النية وسلامة القصد، وقد كافأهم الله تعالى فكتب لهم القبول بين الناس، ونشر علمهم في المشرق والمغرب.

يقول: ابن وهب[١]: سمعت مالكًا-رضي الله عنه- يقول: (ما تعلمت العلم إلا لنفسي، وما تعلمت ليحتاج الناس إلي، وكذلك كان الناس)[٢].

ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: "وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إليَّ حرف منه"[٣].

وكان يقول -رضي الله عنه-: "ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان، وتكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما كلمت أحدًا قط إلا ولم أبال بيّن الله الحق على لساني أو لسانه"[٤].

وهذا السرور والفرح بظهور الحق على لسان المتكلم أو مخالفه من دلائل الإخلاص لله والتجرد لطلب الحق.

فعلى طلاب العلم في كل زمان ومكان أن يقصدوا بعلمهم وجه الله الكريم والزلفى لديه في جنات النعيم، لا يطلبوه لأغراض دنيوية من جاه أو مال، أو سمعة أو شهرة، أو خدمة أو تقدم على الأقران، فكل ذلك إلى

---

(١) عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، أبو محمد المصري الفقيه، قال عنه يحيى بن معين: ثقة، وقال أحمد بن صالح المصري : حدث ابن وهب بمئة ألف حديث، ما رأيت حجازيا ولا شاميا ولا مصريا، أكثر حديثا منه، وقع عندنا عنه سبعون ألف حديث. (ت:١٩٧هـ). انظر: الحافظ المزي، تهذيب الكمال، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ – ١٩٨٠، ٣٧٧/١٦-٢٧٩.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦١/٧.

(٣) أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ١١٨/٩.

(٤) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، دار ابن الجوزي، ١٤٢١هـ، ٤٩٦/٢.

زوال.

٢-التلقي في الصغر:

إن طلب العلم في بداية العمر وسن الشباب أفضل من طلبه في زمن الشيبة، وهو أدعى لرسوخ العلم وثباته، إذا صحبه من الله التوفيق.

أكد هذا المعنى سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بقوله: "قلب الحدث كالأراضي الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته وإنما كان كذلك؛ لأن الصغير أفرغ قلبًا، وأقل شغلًا، وأيسر تبذلًا، وأكثر تواضعًا"(١).

وكما قيل:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولا يلين إذا قومته الخشب

قد ينفع الأدب الأحداث في صغر ... وليس ينفع عند الشيبة الأدب(٢).

وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ فِي مِثْلِ هَذَا: "إِنَّمَا يُطْبَعُ الطِّينُ إِذَا كَانَ رَطْبًا"(٣).

وإن المتأمل في سيرة الأئمة الثلاثة يجد أنهم طلبوا العلم منذ نعومة أظفارهم، واختلفوا إلى الشيوخ ولما يستوف أحدهم بعد عقدًا كاملًا من السنين.

فالإمام أبو حنيفة -رضي الله عنه-حفظ القرآن الكريم في صغره، مع اشتغاله ببيع الخز مع والده، إلى أن قيض الله له الإمام الشعبي؛ فحثّه على الاشتغال بالعلم، كما حكى ذلك الإمام أبو حنيفة حيث قال: "مررت يومًا على الشعبي وهو جالس فدعاني وقال: إلى من تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق، وسميت له أستاذي فقال: لم أعن الاختلاف إلى السوق، عنيت

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ٢٣٣.

(٣) ابن عبد البر، جامع بيان العلم، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ١/٣٦٠.

الاختلاف إلى العلماء فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم فقال لي: لا تفعل وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء؛ فإني أرى فيك يقظة وحركة قال: فوقع في قلبي من قوله فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم فنفعني الله بقوله"[١].

ويحدثنا الإمام مالك عن طلبه للعلم وهو فتى صغير، فيقول: قلت لأمي أذهب فأكتب العلم؟ فقالت تعال فالبس ثياب العلم. فألبستني ثيابًا مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها.

ثم قالت: اذهب فاكتب الآن.

وقال رحمه الله: كانت أمي تعممني وتقول لي اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه[٢].

وفي سير أعلام النبلاء أن الإمام الشافعي ولد بغزة، ومات أبوه إدريس شابًا، فنشأ يتيمًا في حجر أمه، فخافت عليه الضيعة، فتحولت به وهو ابن عامين فنشأ بمكة، وأرادت أمه العاقلة أن تأخذ به إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة على عادة الناس في البداءة بالتعلم، ولكن لم يكن مع أمه ما تؤديه للمعلم أجرًا عن تعليم ابنها[٣].

ويقول الشافعي في ذلك: كنت يتيمًا في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم ، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، كما كان يقول رحمه الله كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلقِّن الصبيَّ الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم، فإلى أن يَفْرغَ المعلم من الإملاء عليهم كنت قد حفظت جميع ما أملى. فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك

(١) مناقب أبي حنيفة للمكي، طبعة دار الكتاب العربي، صـ٥٤.

(٢) انظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، صـ١٣٠.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٢٣٦/٨.

شيئًا[١].

وهكذا رضي المعلم أن تكون أجرته رمزية، ويظهر أنه رأى من نجابة الشافعي وسرعة حفظه ما دعاه إلى المسامحة بأجره، بل ربما رأى أنه لا يبذل في سبيل تعليمه جهدًا يستحق الأجر عليه.

ومما يستفاد من ذلك ويقتدى به: أن طالب العلم ينبغي أن يبادر بالطلب والتحصيل وهو في مقتبل شبابه، فهذا أنفع له؛ لقلة شغله، وفراغ ذهنه، وكثرة نشاطه، وعليه أن لا يغتر بالتسويف والتأجيل، فالأوقات التي تمر لا تعوض، وإنما يقل النشاط، وتزداد الشواغل، بل يجب عليه أن يقطع كل ما يشغله عن تمام الطلب، فالله تعالى يقول: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ...﴾ [الأحزاب: ٤]، وكذلك يقال: "العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلّك"[٢].

٣-أخذ العلم عن الشيوخ:

التلقي عن العلماء ضروري لطالب العلم، وهو قارب من قوارب النجاة، وعصمة من الزلل بإذن الله، فـ(شيوخ طالب العلم هم آباؤه وأجداده، ومن لم يكن له شيوخ يتلقى عنهم العلم ثم ادعى العلم وتكلم فيه فهو دعي فيه، مجهول الهوية والنسب)[٣].

ولذلك كان العلماء لا يلتفتون إلى من لم يكن له شيوخ في العلم، ولا يقيمون له وزنًا، ولا لرأيه اعتبارًا، وهو عندهم: ليس بشيء، قيل لأبي حنيفة

---

(١) انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ٥١، ٢٨٥.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيق: .د/ محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، ١٧٤/٢.

(٣) محمد عوامة، أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، صـ ١٤٣.

رضي الله عنه: في المسجد حلقة ينظرون في الفقه، فقال: لهم رأس؟ قالوا: لا، قال: لا يفقه هؤلاء أبدًا[١].

وفيه أيضًا عن أبي الدرداء رضي الله عنه حكيم هذه الأمة، قال: (مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ مَمْشَاهُ وَمُدْخَلُهُ وَمُخْرَجُهُ مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ)[٢].

وفي الدر المختار: (أفضل المساجد مكة، ثم المدينة، ثم القدس، ثم قبا، ثم الأقدم، ثم الأعظم؛ ثم الأقرب، ومسجد أستاذه لدرسه أو لسماع الأخبار أفضل اتفاقًا)[٣].

فأنت ترى أن أهل العلم استحبوا للطالب أن يصلي في مسجد أستاذه زيادة في توفر الملازمة والصحبة، فقد يعرض للشيخ فائدة يقولها، لا تأتي مناسبة لذكرها في المدرسة أو الكتاب، وما أكثر ذلك.

ملازمة الأئمة الأربعة للشيوخ والتلقي عنهم:

ملازمة الإمام أبي حنيفة لشيخه حماد بن أبي سليمان[٤]:

لزم أبو حنيفة حماد بن أبي سليمان، وتخرج عليه في الفقه، واستقر معه إلى أن مات، فقد روي عنه أنه قال: (قدمت البصرة فظننت أني لا أُسأل عن شيء إلا أجبت عنه، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها

(١) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه، ٨٣/٢.

(٢) المرجع السابق، ١٠/١.

(٣) الحصفكي، الدر المختار، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٦هـ، ٦٥٩، (قوله أفضل اتفاقا) أي من الأقدم وما بعده؛ لإحرازه فضيلتي الصلاة والسماع.

(٤) حماد بن مسلم أبو إسماعيل بن أبي سليمان، الكوفي، أحد أئمة الفقهاء، سمع أنس ابن مالك–رضي الله عنه– وروى عنه سفيان، وشعبة، وأبو حنيفة، وبه تفقه، وعليه تخرج وانتفع، وأخذ حماد عنه بعد ذلك، ومات فى حياته سنة عشرين. انظر: عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ٢٢٦/١.

جواب، فجعلت على نفسي ألا أفارق حمادًا حتى يموت، فصحبته ثماني عشرة سنة)[١].

وكان مع ملازمته لشيخه حماد قد لاقى غيره من الفقهاء والمحدثين، وكان يتتبع التابعين أينما كانوا وحيثما ثقفوا.

قال الإمام أبو حنيفة: "دخلت على أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين، فقال لي: يا أبا حنيفة، عمَّن أخذتَ العلم؟ قلت: عن حماد عن إبراهيم عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس-رضي الله عنهم أجمعين-، فقال أبو جعفر: بخ بخ، استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة الطيبين الطاهرين المباركين صلوات الله عليهم"[٢].

الإمام مالك والتلقي عن الأئمة:

لقد جالس الإمام مالك العلماءَ ناشئًا صغيرًا، ولزم فقيهًا من فقهائهم وعالمًا من علمائهم، وقد ذكر الإمام مالك ذلك فقال: كان لي أخ صغير، فألقى أبي يومًا علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: «ألهتك الحمام عن طلب العلم!» (وكان يتلهّى بتربية الحمام في مطلع حياته) فغضبت، وانقطعت إلى ابن هرمز[٣] سبع سنين (وفي رواية: ثماني سنين)

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢ م، ١٥/٤٤٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ١٥/٤٤٤.

(٣) أبو بكر عبد الله بن يزيد بن هرمز الأصم المعروف بـ ابن هرمز، فقيه المدينة، وشيخ مالك بن أنس، من التابعين ورواة الحديث النبوي، توفي سنة ١٤٨ هـ. انظر: ابن حبان، الثقات، ٧/١٢.

لم أخلطه بغيره[١].

ولم يأخذ الإمام مالك عن ابن هرمز فحسب، بل طلب العلم على نحو مائة شيخ من الشيوخ الكبار، والأئمة الأعلام[٢].

ملازمة الإمام الشافعي لأهل العلم:

رحل إلى الإمام مالك وقرأ عليه الموطأ، يقول رحمه الله تعالى: "جئت مالك بن أنس وقد حفظت المُوَطَّأَ ظاهرًا، فقال لي: اطْلُب من يقرأ لك. فقلت: لا عليك أن تسمَعَ قِراءتي، فإن خَفَّت عليك قَرأتُ لنفسي. قال: فلما سمع قراءتي قرأت لنفسي"[٣].

وقد أخذ الإمام الشافعي رضي الله عنه عن كثير من أهل العلم – غير الإمام مالك–، ذكرهم الحافظ ابن حجر مرتبين على حروف المعجم[٤].

ملازمة الإمام أحمد–رحمه الله–لأهل العلم:

عد الإمام الذهبي شيوخ الإمام أحمد، وذكر أن عدة شيوخه الذين

---

(١) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ١/١٣١.

(٢) من هؤلاء الأئمة: محمد بن شهاب الزهري رحمه الله تعالى، وربيعة بن أبي عبد الرحمن الذي قال عنه مالك بعد موته: لقد ذهبت حلاوة الفقه بعد موت ربيعة، ونافع مولى عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– الذي كان يلقب حينئذٍ بفقيه أهل المدينة، والذي لازمه الإمام مالك ملازمة شديدة، وكان أهل الحديث يلقبون ويسمون رواية مالك عن نافع عن ابن عمر بالسلسلة الذهبية؛ لجلالة وقدر هؤلاء الرواة الثقات الكبار جميعًا.

(٣) البيهقي، مناقب الشافعي، مكتبة دار التراث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م، ١/١٠٠.

(٤) انظر: ابن حجر العسقلاني، توالي التأنيس بمعالي ابن إدريس، دار ابن حزم، الطبعة: الأولى ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م، صـ١١٧.

روى عنهم في (المسند): مائتان وثمانون ونيف[1].

وبهذا يتبين حرص الأئمة على تلقى العلم عن العلماء الراسخين والأئمة النابهين، وأنهم لم يركنوا إلى الصحف يتعلموا منها، أو من ليسوا بأهل للتلقي عنهم.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن على طالب أن يأخذ العلم ممن كملت أهليته، وظهرت مروءته، وعرفت عفته، وكان حسن التعليم، جيد التفهيم، ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورع أو دين أو خلق.

قال الإمام مالك-رحمه الله-: (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده هذه الأساطين، وأشار إلى المسجد، فما أخذت عنهم شيئًا، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينًا إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن)[2].

ويمكن أن نلخص الصفات التي ينبغي أن يراعيها طالب العلم فيمن يتلقى عنه، في الآتي:

١-الأهلية للتعليم.

٢-الورع والتقوى.

٣-الشفقة على الطلاب.

٤-المروءة.

٥-العفة.

٦-صيانة النفس عن الرذائل.

٧-حسن التعليم.

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/١٨٠-١٨١.

(٢) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ١/١٣٦.

٨-جودة التفهيم.

٨-الخلق الجميل.

***الأدب مع الشيوخ:**

يجب على طالب العلم أن يكون مؤدبًا مع شيخه، منقادًا له، يرجع إلى رأيه، ويشاوره أمره، وأن ينظره بعين الإجلال، ويتقرب إلى الله تعالى بخدمته.

وهذا دأب الأئمة الأربعة في إجلالهم وتوقيرهم لشيوخهم:

يروى عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال: (ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد بن أبي سليمان إجلالًا له، وكان بين داره وداري سبع سكك)[١].

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: (قدمت المدينة فرأيت من مالك بن أنس ما رأيت من هيبته وإجلاله للعلم، فازددت لذلك حتى ربما كنت أكون في مجلسه فأريد أن أَصْفَحَ الورقةَ فأصْفَحها صَفْحاً رقيقاً، هيبةً له؛ لئلا يسمع وَقْعَها)[٢].

وقال الإمام أحمد بن حنبل لخلف الأحمر[٣]: لا أقعد إلا بين يديك، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه[٤].

وعلى ذلك ينبغي على طالب العلم أن يتلقى على يد العلماء الناصحين المعروفين بالورع والتقوى، المشهود لهم بالرسوخ في العلم، وأن

---

(١) محمد عوامة، أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، صـ١٥٢.

(٢) البيهقي، مناقب الشافعي، ١٤٤/٢.

(٣) أَبُو مُحْرِزْ خَلَّفَ بْنْ حَيَّانِ المعروف بِخَلَفٍ اَلْأَحْمَرِ، من علماء البصرة في اللغة والنحو، ت١٨٠هـ، انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢١٩.

(٤) ابن جماعة، تذكرة السامع، صـ٤١.

يوفيهم حقَّهم من التعظيم والتقدير والإجلال، وأن يحذر من ازدراءهم وانتقاصهم، فمنزلتهم عظيمة، ودورهم مؤثر، إذ ببيان العلماء يظهر العلمُ، ويُرفَع الجهلُ، وتُزال الشبهة، وتُصان الشريعة، ويكون الناس على طريق مستقيمة، ومحجَّة واضحة، لا غموض فيها ولا الْتباس، وقد حث صلى الله عليه وسلم على توقير العلماء، وبين أن ذلك من إجلال الله – تعالى – وتعظيمِ شريعته، وامتثالِ أمره؛ فعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ)[1].

٤–أن يبتدئ أولاً بكتاب الله العزيز:

القرآن الكريم هو أصل العلوم ومنبعها، لذا كان لزامًا على طالب العلم أن يبتدئ به أولًا، يقول الإمام ابن جماعة: وعلى طالب العلم أن يبتدئ أولاً بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظًا ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه، فإنه أصل العلوم وأمها وأهمها. ثم يحفظ من كل فن مختصرًا يجمع فيه بين طرفيه من الحديث وعلومه، والأصوليين والنحو والتصريف، ولا يشتغل بذلك كله عن دراسة القرآن وتعهده وملازمة ورده منه في كل يوم أو أيام أو جمعة كما تقدم، وليحذر من نسيانه بعد حفظه[2].

والأئمة الأربعة جميعهم بدأ حياته العلمية بحفظ كتاب الله، وأتم حفظه في سن مبكرة، ومن المأثور في ذلك قول الإمام الشافعي: (حفظت "القرآن"،

(١) أخرجه الإمام أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في تنزيلِ الناسِ مَنَازلَهم، ٢١٢/٧، حديث رقم (٤٨٤٣)، وقال الشيخ شعَيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) انظر: ابن جماعة، تذكرة السامع، ٥١.

وأنا ابن سبع سنين، وحفظت "الموطأ" وأنا ابن عشر سنين)[١].

وكما يجب على طالب العلم أن يبدأ بكتاب الله تعالى الذي هو مفتاح الهداية، فعليه أن يحذر في ابتداء أمره من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء أو بين الناس مطلقًا؛ فإن ذلك يحير الذهن، ويدهش العقل، ويثير العصبية المذمومة.

٥-التفرغ والمصابرة على طلب العلم:

إنَّ العلم لما كان أشرف الأشياء، وكان ميراث الأنبياء، وكان الفوز به مكرمة عظيمة، لم يحصل إلا بالتعب والسهر، وهجر اللذات والراحة، وكيف لا والمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة يعبر إليها على جسور من التعب.

إن طلب العلم يحتاج إلى مجالسة العلماء ومزاحمتهم بالركب، كما يحتاج إلى مدارسة ومراجعة وحفظ وقراءة ومطالعة.

يقول الإمام النووي رحمه الله في وصفه لطالب العلم: (ينبغي أن يكون حريصًا على التعلم، مواظبًا عليه في جميع أوقاته، ليلاً ونهارًا، وسفرًا وحضرًا، ولا يُذهب من أوقاته شيئًا في غير العلم إلا بقدر الضرورة، لأكل ونوم قدرًا لابد له منه ونحوهما، كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وشبه ذلك من الضروريات، وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثمَّ فوتها!!)[٢].

ونقل الحافظ الخطيب البغدادي[٣] -رحمه الله- عن أبي أحمد نصر

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٩٢/٢.

(٢) النووي، المجموع شرح المهذب، دار الفكر، ٣٧/١.

(٣) أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، صاحب التصانيف، وخاتمة الحفاظ، ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاث مائة، من كبار الشافعية، وكان ثقة حافظا متقنا متحريًا مصنفًا. ومن تصانيفه: التاريخ-شرف أصحاب الحديث، وغيرهما. (ت: ٤٦٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤١٩/١٢-٤٢٨.

بن أحمد العياضي[1]: "لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه، وحزب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته"[2].

عطَّل دكانه، وخرَّب بستانه أي: ترك الزراعة؛ لأن الأصل أن يتفرغ طالب العلم للعلم، بل إن بعض أهل العلم أجاز لطالب العلم إذا كان فقيرًا أن يأخذ من سهم ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وهو أحد مصارف الزكاة، يجوز له أن يأخذ الزكاة ليتفرغ لطلب العلم احتسابًا لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا كله وإن كانت فيه مبالغة، فالمقصود به أنه لابد في طلب العلم من التفرغ، وجمع القلب واجتماع الفكر.

وقد حَفَلتْ كتبُ الأدب والتراجم والتاريخ والأخلاق بالأقوال التي تصف فقر العلماء وغُربتهم وصبرهم على شدائدهم الخانقة، واستهانتهم بها، وعدمِ اكتراثهم لها، تمسكًا منهم بمثوبة الصبر، واحتسابهم الأجر.

مصابرة الأئمة الأربعة في طلبهم للعلم:

لم تكن حياة الأئمة الأربعة إلا صفحة مشرقة من صفحات الصبر والتضحية والمصابرة في طلب العلم، وإليك طرفًا من أقوالهم وأحوالهم في ذلك:

قال الإمام أبو حنيفة: "يُستعان على الفقه بجمع الهم، ويستعان على

(١) نصر بن أحمد بن العباس بن جبلة بن غالب العياضي أبو أحمد بن أبي نصر ولد الإمام الشهيد وأخو الإمام أبي بكر محمد بن أحمد العياضي تفقه على والده أبي نصر حتى برع فى المذهب وصار فريد عصره. انظر: عبد القادر بن محمد القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ١٩٢/٢.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، ١٧٤/٢.

حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة ولا يزد"[١].

وقال الإمام مالك: "لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل شيء"[٢].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: "لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح"[٣].

وكان الإمام مالك قد اتخذ تيانًا محشوًا للجلوس على باب ابن هرمز يتقي به برد حجر هناك. وكان يقول: وكنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل.

قال ابن القاسم[٤]: "أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه ثم مالت عليه الدنيا بعد"[٥].

وقال الإمام الشافعي–رحمه الله–:

"فلما ختمت القرآن، دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تُعطيني أشتري به قراطيس! فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح، آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحتُه

(١) منازل الأئمة الأربعة، يحيى بن إبراهيم السلماسي، صـ١٧٠.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، ٦/٣٣١.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، ٦/٣٣١..

(٤) عبد الرحمن بن القاسم، عالم الديار المصرية، ومفتيها، أبو عبد الله العتقي مولاهم، المصري، صاحب مالك الإمام. ولد ابن القاسم سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وتوفي في صفر، سنة إحدى وتسعين ومائة –رحمه الله– عاش تسعا وخمسين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء، ٧/ ٥٤٧–٥٤٩.

(٥) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ١/١٣٠.

في جَرَّةٍ كانت لنا قديمًا"[١].

وقال أيضًا -رحمه الله -: "لم يكن لي مال، وكنت أطلب العلم في الحداثة -أي: في مستهل عمره، وكانت سنه أقل من ثلاث عشرة سنة- وكنت أذهب إلى الديوان أستوهِبُ الظهور -أي: ظهورَ الأوراق المكتوبِ عليها- فأكتب فيها"[٢].

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى يؤجر نفسه ويعين الحمالين، وكان ربما احتاج فخرج إلى اللِّقاط[٣]، أو نسخ بأجرة[٤].

وكان يحكي عن نفسه، فيقول- رَحِمَهُ اللَّهُ -:" كنت ربما أردت البكور إلى الحديث -يعني يريد أن يخرج من بيته قبل أذان الفجر ليذهب إلى العلماء- فتأخذ أمي ثيابي وتقول: حتى يؤذن للفجر. يقول: أجلس، وكنت ربما بكَّرت إلى مجلس أبي بكر بن عياش وغيره قُبيل الفجر. وهذا من شدة الحرص والمصابرة في طلب العلم"[٥].

وقال ابن رافع[٦]: "رأيت أحمد بن حنبل بمكة بعد رجوعه من اليمن وقد تشقَّقت رجلاه وأبلغ إليه التعب، فقال لي: يا أبا عبد الله، ما أخلقني أن

---

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ٤١٣/١.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/١٠.

(٣) اللقاط: ما يبقى من السنابل في الأرض بعد الحصاد فيلتقطه الناس. انظر: المعجم الوسيط، ٨٣٤/٢.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٣٠/١١.

(٥) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ٣٠٦/١١.

(٦) محمد بن رافع، ابن أبي زيد، واسمه سابور، الإمام الحافظ الحجة القدوة بقية الأعلام أبو عبد الله القشيري مولاهم النيسابوري. ولد سنة نيف وسبعين ومائة، في أيام مالك الإمام، ورحل سنة نيف وتسعين. وسمع ما لا يوصف كثرة، وجمع، وصنف. انظر: سير أعلام النبلاء، ٥٥٤/٩.

لا أرحل بعدها في حديث. قال: ثم بلغني أنه صار إلى أبي اليمان بعد اليمن، أي إلى حمص!!"[١].

فهذه أقوال الأئمة الذين لهم في العلم القِدْحُ الْمُعَلَّى غير مدافع، وكانت هذه أحوالهم رضي الله عنهم.

ومما يستفاد من هذا أنه ينبغي على طالب العلم أن يكون صبورًا في طلبه، لا يمل ولا ينقطع عن الطلب، ويغالب الصعاب، وأن يشتغل بالقراءة والإقراء والمطالعة والحفظ، والتصنيف والبحث. ولا يضيع شيئًا من أوقات عمره إلا بقدر الضرورة من أكل أو شرب أو نوم أو استراحة أو أداء حق.

وما بالنا في هذه الأيام نرى طالب العلم يأتي إلى الدرس متأخرًا، أو يأتي درسًا ويفوت درسًا، أو يواظب فترة ثم ينقطع ويتعلل بشتى العلل، – مع أن الأمور أصحبت ميسورة، والوسائل متاحة– فكيف سيحصل العلم وينال المطلوب، وهو على هذه الحالة؟!.

وهناك صورة أخرى من صور كفاح الأئمة الأربعة ومصابرتهم في طلب العلم، وهي الرحلة والسفر في طلب العلم، باستثناء الإمام مالك الذي آثر ألا يغادر دار الهجرة إلا حاجًا إلى بيت الله الحرام، أما الأئمة الثلاثة فقد طوفوا بمدن العالم شرقًا وغربًا في طلب العلم فرحلوا إلى الحجاز والعراق واليمن والشام ومصر. وهكذا يعلمنا الأئمة أن العلم يسعى إليه، ويرتحل في سبيله، ويبذل الجهد والمال من أجل تحصيله.

وهناك صفحة أخرى مشرقة من حياة الأئمة الأربعة في جانب بثهم ونشرهم للعلم،

نلقي الضوء عليها من خلال الآتي:

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٦٧/٥.

المطلب الثاني: القدوة الحسنة في نشر العلم في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

هناك آداب ينبغي أن يتحلى بها العالم، ومنها:

١-الإخلاص في نشر العلم وتعليمه:

كما أن الإخلاص مطلوب في مبتدأ العلم وتحصيله، كذلك لا بد من الإخلاص في نشره وتعليمه، ومن النيات الصالحة في نشر العلم-كما يقول الإمام ابن جماعة-: (أن يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه الله تعالى ونشر العلم وإحياء الشرع ودوام ظهور الحق وخمول الباطل ودوام خير الأمة بكثرة علمائها واغتنام ثوابهم وتحصيل ثواب من ينتهي إليه علمه من بعضهم وبركة دعائهم له وترحمهم عليه ودخوله في سلسلة العلم بين رسول الله - ﷺ - وبينهم وعداده في جملة مبلغي وحي الله تعالى وأحكامه؛ فإن تعليم العلم من أهم أمور الدين وأعلى درجات المؤمنين)[١].

وكما أن الله سبحانه وتعالى أعد لطالب العلم الثواب العظيم والأجر الواسع جزيل[٢] إذا حسنت نيته، فكذلك الوعيد شديد لمن ساءت نيته، وقصد بعلمه السمعة والرياء، والغرم بالغنم كما يقول العلماء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ،... وذكر الثلاثة، وفيه وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ،

---

(١) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، صـ٢٥.

(٢) من ذلك ما ورد في الحديث الشريف أن الرسول - ﷺ -قال: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»،. أخرجه الإمام الترمذي في سننه، ٥٠/٥، وقال حديث حسن صحيح غريب.

وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ...)[١].

فتعليم العلم منصب عظيم، وفوز كبير، نعوذ بالله من موجبات حرمانه وفواته، ونعوذ بالله أن نكون من هذا الصنف الذين تسعر بهم النار يوم القيامة.

٢-**أن لا ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلاً له** ولا يذكر الدرس مِنْ عِلْمٍ لا يعرفه، فإن ذلك لعب في الدين وازدراء بين الناس[٢].

قال النبي – ﷺ –: (المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ)[٣].

وعن أبي حنيفة ﷺ: "من طلب الرياسة في غير حينه لم يزل في ذلٍّ ما بقي، واللبيب من صان نفسه عن تعرضها لما يعد فيه ناقصًا وبتعاطيه ظالمًا وبإصراره عليه فاسقًا"[٤].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، بَابُ مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، ١٥١٣/٣، حديث رقم (١٩٠٥).

(٢) أشار إلى ذلك الإمام ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم، ص٢٤.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المُتَشَبِّعِ بِمَا لَمْ يَنَلْ، وَمَا يُنْهَى مِنَ افْتِخَارِ الضَّرَّةِ ، ٣٥/٧، حديث رقم (٥٢١٩). ويقول الإمام النووي رضي الله عنه رحمه: "قال العلماء معناه: المتكثِّر بما ليس عنده بأن يُظهِرَ أنَّ عنده ما ليس عنده؛ يتكثَّر بذلك عند الناس، ويتزين بالباطل" انظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج١٤، ص١١٠. ويقول الإمام ابن حجر رحمه الله ورضي عنه: "وأما حكم التثنية في قوله: ((ثوبي زُورٍ))؛ فللإشارة إلى أنَّ كذب المتحلِّي مثنًى؛ لأنه كذب على نفسه بما لم يأخذ، وعلى غيره بما لم يُعط" انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج٩، ص٣١٨.

(٤) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٢٥.

والأئمة الأربعة لم يتصدروا للتعليم إلا وهم أهل له، وقد أذن لهم شيوخهم، وعلى سبيل المثال ما ذكره ابن عساكر، عن الحميدي، قال سمعت مسلم بن خالد الزنجي يقول للشافعي محمد بن إدريس رحمه الله: "أفت أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتي وهو ابن ست عشرة سنة"(١).

٣-التواضع مع طلاب العلم...

على العالم أن يتواضع مع طلابه، ويخفض لهم جناحه، ويلين لهم جانبه، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥]، وصح عن النبي – صلى الله عليه وسلم –أنه قال: (وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ)(٢).

ومن صور هذا التواضع كما بين الإمام ابن جماعة:

أ-أن يخاطب كلاً منهم لاسيما الفاضل المتميز بكنية ونحوها من أحب الأسماء إليه وما فيه تعظيم له وتوقير.

ب-كذلك ينبغي أن يرحب بالطلبة إذا لقيهم وعند إقبالهم عليه ويكرمهم إذا جلسوا إليه ويؤنسهم بسؤاله عن أحوالهم وأحوال من يتعلق بهم بعد رد سلامهم.

ج- وليعاملهم بطلاقة الوجه وظهور البشر وحسن المودة وإعلام المحبة وإضمار الشفقة؛ لأن ذلك أشرح لصدره وأطلق لوجهه وأبسط لسؤاله، ويزيد في ذلك لمن يرجى فلاحه ويظهر صلاحه(٣).

---

(١) تاريخ دمشق، ٣٠٦/٥١.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٢١٩٨/٤، حديث رقم (٢٨٦٥).

(٣) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٣٤.

والأئمة الأربعة رضي الله عنهم ورثوا هذا الخلق عن رسول الله ﷺ، وعاشوه مع تلاميذهم، فهذا الإمام أبو حنيفة-رضي الله عنه-كان أكرم الناس مجالسة وأشدهم إكرامًا لأصحابه[١].

وكان البويطي[٢] يدني القُرَّاء ويقربهم إذا طلبوا العلم ويعرفهم فضل الشافعي رضي الله عنه وفضل كتبه ويقول: "كان الشافعي يأمر بذلك ويقول: اصبر للغرباء وغيرهم من التلاميذ"[٣].

٤-أن يقول إذا سئل عما لا يدري: لا أدري:

من الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها العالم: إذا سئل عما لا يعلمه قال لا أعلمه، أو لا أدري. قال الإمام ابن جماعة: من العلم أن يقول لا أعلم، وعن بعضهم: لا أدري نصف العلم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مقالته وقيل: ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري لكثرة ما يقولها. واعلم أن قول المسئول لا أدري لا يضع من قدره كما يظنه بعض الجهلة، بل يرفعه لأنه دليل عظيم على عظم محله وقوة دينه وتقوى ربه وطهارة قلبه وكمال معرفته وحسن تثبته [٤].

وهذا كان حال الأئمة الأربعة رضي الله عنهم لا يتقولون على الله بغير علم، وكثرت على ألسنتهم لا أدري، ومن أكثر من اشتهر عنه ذلك: الإمام مالك رضي الله عنه، قال عنه ابن وهب: وكنت أسمعه كثيرًا ما يقول: لا أدري. وقال

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) أبو يعقوب يوسف بن يحيى البُوَيْطِيُّ المصر، ت ٢٣١هـ ، صاحب الإمام الشافعي، وخليفته من بعده على أصحابه. انظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ١٦٢/٢.

(٣) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٣٤.

(٤) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٢٣.

في موضع آخر: لو كتبنا عن مالك: لا أدري لملأنا الألواح[١].

ويروى عنه أنه جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة أشهر حملني أهل بلدي مسألة أسألك عنها، قال: فسل فسأله الرجل عن مسألة فقال «لا أحسنها» قال: فبهت الرجل كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء، قال فقال: فأي شيء أقول لأهل بلدتي إذا رجعت لهم؟ قال: " تقول لهم: قال مالك: لا أحسن "[٢].

وسأله آخر فقال" "يا أبا عبد الله أجبني فقال ويحك، أتريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله؟ فأحتاج أنا أولاً أن أنظر كيف خلاصي، ثم أخلصك"[٣].

وقال محمد بن عبد الحكم: "سألت الشافعي ﷺ عن المتعة أكان فيها طلاق أو ميراث أو نفقة تجب أو شهادة؟ فقال: والله ما ندري"[٤].

الفائدة...

هذا درس عظيم يجب أن يستفيده العالم والداعية وطالب العلم من حياة الأئمة الأربعة رضي الله عنهم، وهو أن يقول إذا سئل عما لا يدري: (لا أدري)، ولا يستحي ولا يتحرج، فلا يقل على الله بغير علم. وإننا لنرى كثيرًا من الناس لا يتورعون عن الفتيا، ويتجرأ الواحد منهم على القول على الله جل وعلا بغير علم، بل قد يجيب على كثير من المسائل التي تحتاج إلى جمع من العلماء لينظروا فيها، ويحرروا القول الصواب، أو كما يقال: لو عرضت هذه المسائل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ٨٣٤/٢.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة..

(٣) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ١٨١/١.

(٤) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٢٣.

عنه، لجمع لها أهل بدر رضي الله عنهم؛ ليستشيرهم، ومع ذلك يتصدر البعض فينصب نفسه مفتيًا ومخولًا عن الأمة، ويصدر الفتاوى، ويستحي أن يقول: إنه لا يعلم.

٥-أن يتجنب مواضع التهم:

ولنا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة، فقد قال للرجلين لما رأياه يتحدث مع زوجته أم المؤمنين السيدة صفية-رضي الله عنها- فَوَلَّيَا: "على رسلكما إنها صفية"، ثم قال: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فَخِفْتُ أن يقذف في قلوبكما شيئًا" أو قال: "فتهلكا".

وهذا نص الحديث: عَنْ صَفِيَّةَ ابْنَةِ حُيىٍّ - رضي الله عنها-قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُعْتَكِفًا، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ، فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي - وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ- فَمَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَىٍّ". فَقَالاَ: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا" - أَوْ قَالَ - "شَيْئًا"[(١)].

ويستفاد من الحديث الشريف: التحرز من التعرض لسوء الظن، والاحتفاظ من كيد الشيطان. قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدى به، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم[(٢)].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ٥٠/٣، حديث رقم (٢٠٣٨)، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، ١٧١٢/٤، حديث رقم (٢١٧٥٩).

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، ٢٨٠/٤

والأئمة الأربعة رضي الله عنهم مع طول حياتهم واختلاطهم بالناس، لم يؤثر عن أحدهم أنه قام مقام ريبة، أو تجاوز حدود الشرع، أو عرض نفسه للتهمة وسوء الظن. وحري بالمسلمين عمومًا، والدعاة وطلاب العلم خصوصًا أن يسيروا على هذا النهج القويم.

٦-حسن الهيئة والمنظر:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ * يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وفي الحديث الشريف أن رجلًا جاء إلى النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَكَ مَالٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، مِنْ كُلِّ الْمَالِ، قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَالْخَيْلِ، وَالرَّقِيقِ، قَالَ: «فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا، فَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ»[(١)].

لا يعني التفرغ للعلم والإقبال على العبادة والزهادة في الدينا، لا يعني هذا ولا يستوجب هذا عدم الاهتمام بالمنظر والهيئة، فالنبي ﷺ كان جماله يخطف الأبصار، كان أجمل الناس، ومع ذلك كان يعتني بلباسه وهيئته.

وكان الأئمة يدركون ذلك ويعلمون مدى تأثير المنظر على الحضور؛ لأن الناس بطبيعتهم ينجذبون إلى كل ما هو حسن وجميل، وهذا أدعى للقبول والتأثير.

كان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه جميل الصورة، مهيب الطلعة، وقورًا، يتأنق في ثوبه وعمامته ونعليه، كثير التطيب يُعرف به إذا ذهب وإذا جاء.

وكان الإمام مالك رحمه الله يُعنَى بلباسه أتم عناية، ويرى بذلك

(١) أخرجه الإمام أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في المصبوغ بالصُّفْرة، ١٦٩/٦، حديث رقم (٤٠٦٤)، وقال الشيخ شعَيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

إعظام العلم ورفعة العالم، وأن من مروءة العالم أن يختار الثوب الحسن يرتديه ويظهر به، وأنه لا ينبغي أن تراه العيون إلا بكامل اللباس حتى العمامة الجيدة، فكان رحمه الله تعالى يلبس أجود اللباس وأغلاه وأجمله مما يليق بالعلماء. وكان رحمه الله إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب ولبس من أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه، ثم يجلس على منصة، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ، قاصدًا بذلك تعظيم العلم، وتبجيل الشريعة.

أما عن الإمام الشافعي فقد قيل للربيع[١] كيف كان لباس الشافعي؟ قال: كان مقتصدًا فيه، يلبس الثياب الرفيعة من الكتان والقطن والبغدادي، وكان ربما لبس قلنسوة ليست بمشرفة جدًا، ويلبس كثيرًا العمامة والخف[٢].

والإمام أحمد رضي الله عنه مع ما اشتهر عنه من الزهد وقلة ذات اليد، إلا أنه مع ذلك كان نظيف الثوب، طيب الرائحة.

٧-الهيبة والوقار:

وهذه الهيبة ليست كبرًا واعتدادًا، وإنما إجلال وتعظيم للعلم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وجدير بمن يحمل هذا العلم أن يعزه ويعظمه.

وكلما ازداد العالم تعظيمًا وتقديرًا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ازداد رفعة ومنزلة عند الناس، وكساه الله هيبة في نفوسهم، وهكذا كان الأئمة الأربعة ﷺ، فهذا الإمام أبو حنيفة ﷺ كان يمتاز بقوة

(١) الربيع بن سليمان ابن عبد الجبار بن كامل، الإمام المحدث الفقيه الكبير، بقية الأعلام ، أبو محمد ، المرادي ، مولاهم المصري المؤذن ، صاحب الإمام الشافعي ، وناقل علمه، مات سنة سنة سبعين ومائتين . انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٨٨/١٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني، توالي التأسيس، صـ١٥٦.

الشخصية والنفوذ والمهابة والتأثير في غيره، وقد وصف مجلسه مع أصحابه معاصره مسعر بن كدام[١]–رحمه الله–، فقال: «كانوا يتفرقون في حوائجهم بعد صلاة الغداة، ثم يجتمعون إليه فيجلس لهم، فمن سائل ومن مناظر، ويرفعون الأصوات لكثرة ما يحتج لهم، إن رجلاً يُسكن الله به هذه الأصوات لعظيمُ الشأن في الإسلام»[٢].

وكان الإمام مالك رحمه الله عظيم القدر والوقار، كما كان غزير العلم. كان رحمه الله مهيبًا عند الناس، الخاصة والعامة، يهابه تلاميذه حتى أن الرجل ليدخل إلى مجلسه فيلقي السلام عليهم فلا يرُدُّ عليه أحد إلا همهمة وإشارة، ويشيرون إليه ألا يتكلم مهابةً وإجلالًا.

٨–قوة الحجة..

إن من أبرز العوامل التي ترتقي بالعالم إلى قمة النجاح وتضفي على مستمعيه روح الهيمنة والتأثير– هي قوة حجته، ووضوح استدلاله، وهذا يتأتى بكثرة الاطلاع، وقوة الملاحظة، وإدراك أحوال المخاطبين، مع سلامة المنطق وفصاحة اللسان.

وقد اشتهر ذلك عن الأئمة الأربعة–رضي الله عنهم– وبدا واضحًا من خلال فتاويهم وإجاباتهم عن المسائل ومراعاتهم لأحوال المخاطبين، ومن أكثرهم شهرة في هذا الباب حتى صار يضرب به المثل في الذكاء والفطنة وقوة الحجة والبرهان: الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه. قيل للإمام مالك–رضي الله عنه–: هل رأيت أبا حنيفة فقال: "نعم، رأيت رجلاً لو كلمك

(١) أبو سلمة مِسْعَرُ بْنُ كِدَامٍ بن ظُهَيْر بن عبيدة بن الحارث الهلالي الكوفي (توفي: ١٥٣ هـ / ٧٢٢م) شيخ العراق وأحد رواة الحديث النبوي، ومن الأئمة العدول. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٧٧/٦.

(٢) أبو حنيفة، محمد أبو زهرة، ص٧٠–٧١.

في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته"[١].

بمثل هذه الفطنة وقوة الحجة...يعلم الجاهل ويبصر، ويدحض الباطل ويستظهر الحق...مع وجوب مراعاة الأفهام، كل إنسان على حسب ما يتناسب مع فهمه، وما يتفق مع عقليته.

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٥٩/١٥.

المبحث الثاني:
القدوة الحسنة في الجانب الروحي في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: أهمية تزكية الروح في بناء القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: القدوة الحسنة في جانب النفس والروح في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

المطلب الأول: أهمية تزكية الروح في بناء القدوة الحسنة

إن الإسلام يهتمّ بتزكية النفوس وتصفية الأرواح، فبدونهما يفقد المسلم التوازن في حياته، فالله تعالى خلق الإنسان من طين وروح، وإذا اهتم الإنسان بجانب وأهمل الآخر حدث الخلل ووقع الاضطراب، وكان المسلم عرضة للانحراف والسقوط في براثن الشهوات ومستنقع الغرائر، مهما كان قويًا في جسمه وعقله، واسعًا في علمه وثقافته، مادام فقيرًا من الناحية الروحية والأخلاقية.

***عوامل البناء الروحي وتزكية النفس:**

لا بد لكل بناء من أساس وبمقدار قوة ذلك الأساس ورسوخه بمقدار ما ينهض البناء ويعلو ويقاوم الأعاصير، **والأساس الأول:** لتزكية الروح هو الإيمان بالله، وتأتي بقية أركان الإيمان بعد ذلك، وأبرزها الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر.

فإذا تيقن المسلم أن الله تبارك وتعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، وأن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء، كل ذلك بيده لا بيد غيره، إذا رسخ ذلك كله في قلب المسلم حصلت له الطمأنينة والسكينة.

والإيمان بالقدر يورث النفس الإنسانية السكينة والطمأنينة، ويبعدها عن القلق والاضطراب، فالمسلم يعلم أن ما أصابه إنما هو بإذن الله قد كتبه عليه...وما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه...،وقد يكون من وراء ذلك الخير.

والإيمان باليوم الآخر يغرس في نفس المسلم رقابة داخلية على أعماله، فهو يعلم أنه مسئول عن أقواله وأفعاله، وأن كل صغيرة او كبيرة تحصى عليه وتسجل في صحائف أعماله.

وكلما تطلع المؤمن إلى اليوم الآخر وشوقه ما أعده الله لعباده المتقين

في الجنة، كان أكثر مسارعة إلى العمل الصالح والزهد في الدنيا، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠].

والعامل الثاني: الاجتهاد في الطاعات والتقرب بها إلى الله عز وجل

من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها المسلم بعد الإيمان بالله – عز وجل–: الاجتهاد في الطاعات والتقرُّب بها إليه –سبحانه وتعالى–، وأقرب القربات وأعظم الطاعات ما فرضه الله سبحانه على عباده من أنواع العبادات كالصلاة، والصيام، والزكاة،، والحج، ومداومة ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن الكريم، ثم يتبع ذلك ما يتطوّع به المسلم من النوافل. إن الاجتهاد في عبادة الله ابتغاء مرضاته يجعل العبد ربانيّا يتحرك في طاعة الله، ويسكن في مرضات الله، ويأكل ليقوى على عبادة الله، فيكون نومه شكرًا، وصمته فكرًا، وكلامه ذكرًا، وفي الحديث عن النبي –ﷺ– أنه قال: قال الله تعالى: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ،...)[1]. فالمحافظة على الفرائض وأدائها كما أمر الله من أعظم القربات إلى الله سبحانه.

ولنا في رسول الله –ﷺ–الأسوة والقدوة الحسنة، فقد كان عليه الصلاة والسلام أتقى المسلمين وأخشاهم لله رب العالمين، فكان إذا صلى يُسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وكان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فلما قيل له في ذلك قال: (أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورً)[2]. وكان –صلى

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، بَابُ التَّوَاضُعِ، ١٠٥/٨، حديث رقم (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، بَابُ الصَّبْرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، ٩٩/٨، حديث رقم (٦٤٧١).

الله عليه وسلم–يصوم حتى يقال لا يفطر، وكان يتصدق بكل ما عنده ولا يبقي لنفسه شيئًا؛ وكان يذكر الله على كل أحيانه، ويستغفر الله في المجلس مائة مرة. لهذا كان الاجتهاد في الطاعات والتنافس في الخيرات من أبرز سمات الدعاة إلى الله –عز وجل؛ حيث تكون الصلة وثيقة بينهم وبين ربهم عز وجل.

العامل الثالث: الزهد والتقلل من متاع الدنيا

الزهد في الدنيا وعدم الركون إليها سمة من سمات الصالحين، وسبب من أسباب تزكية الروح، وقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة في بيان أهمية الزهد وفضله، وتصوير حقيقة الدنيا وهوانها على الله تعالى، والتحذير من الانشغال بها عن أداء الحقوق، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾[الحديد: ٢٠].

وقال ﷺ: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)[(١)].

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، بَابُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْفُقَرَاءُ وَأَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءُ وَبَيَانِ الْفِتْنَةِ بِالنِّسَاءِ، ٢٠٩٨/٤، حديث رقم (٢٧٤٢). وقال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في التعليق –نفس الصفحة– (إن الدنيا حلوة خضرة) يحتمل أن المراد به شيئان: أحدهما حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلبا حثيثا فكذا الدنيا، والثاني سرعة فنائها كالشيء الأخضر في هذين الوصفين. (إن الله مستخلفكم فيها) أي جاعلكم خلفاء من القرون =

وليس الزهد بتحريم الحلال والترغيب في الفقر، وإنما تفريغ القلب من حب الدنيا وشهواتها، وامتلاؤه بحب الله ومعرفته. وفي الأثر: (لَيْسَ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَا بِإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدَيْكَ)[1].

وهكذا ينبغي أن تكون نظرة المسلم للدنيا، يعلم أنها فانية ومتاعها قليل، ونعيمها لا يدوم، فلا يجعلها أكبر همه ومبلغ علمه، ولا يتنافس فيها على لذيذ الطعام وشهيّ الشراب والمراكب الفارهة، وإنما يقنع بما قسم الله له منها، ويبذلها بنفس سخية راجيًا ثواب الله الذي أعده لعباده المحسنين في دار البقاء والنعيم.

=

الذين قبلكم فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم (فاتقوا الدنيا واتقوا النساء) أي: اجتنبوا الافتتان بها وبالنساء.

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، دار ابن كثير، دمشق ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ٦٣/١، عن يُونُسَ بْنِ مَيْسَرَةَ الْجُبْلَانِيِّ.

المطلب الثاني:

القدوة الحسنة في جانب النفس والروح في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها.

بالنظر إلى سيرة الأئمة الأربعة، ومطالعة أحوالهم، والغوص في بحار أنوارهم، يتبين ما كانوا عليه –رحمهم الله تعالى– من يقظة الروح واشتعالها، وسموها وارتقاءها في أعلى الدرجات. امتلأت قلوبهم بنور الإيمان بالله، وأيقنوا باليوم الآخر كأنهم شاهدوه. كانوا من أزهد الناس في الدنيا وأكثرهم طاعة وذكرًا لله تعالى وأشدهم اجتهادًا في العبادة. بالنهار في رحاب العلم والصلاة والصيام، متبتلين في الليل بالقيام والتهجد والدعاء والبكاء والتضرع وقراءة القرآن الكريم.

لقد عُرف عن الإمام أبي حنيفة أنه كان ورعًا كثير العبادة، من أورع الناس، كثير الصلاة، يختم القرآن في صلاته، حافظًا للسانه، ناصحًا للناس، بذل نفسه لله تعالى، ليله في الصلاة، ونهاره في تدريس العلم، وحاجة المسلمين، رحمه الله تعالى.

قال أبو عاصم النبيل[١]: « كان أَبُو حنيفة يسمى: الوتد، لكثرة صلاته »[٢].

ولم يكن–رضي الله عنه– يؤدي الصلاة هكذا دون خشوع وتدبر،

---

(١) الضحاك بن مخلد بن الضحاك بن مسلم بن الضحاك، الإمام الحافظ شيخ المحدثين الأثبات أبو عاصم الشيباني مولاهم ويقال: من أنفسهم البصري، ولد سنة اثنتين وعشرين ومائة. ويقال: إنما قيل له: النبيل لأن فيلا قدم البصرة فذهب الناس ينظرون إليه فقال له ابن جريج: ما لك لا تنظر؟ قال: لا أجد منك عوضا قال: أنت نبيل. (ت: ٢١٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، ١٧٢/٨-١٧٤.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٧٣/١٥.

وإنما يقيم أركانها وشروطها، ويتدبر ما يتلوه من آيات القرآن. يقول أبو عبد الرحمن المقرئ: «لو رأيت أبا حنيفة يصلي، علمت أن الصلاة من همه»[(١)].

وقام مرة من الليل يردد هذه الآية ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٧]، وهو يبكي ويقول: "اللهم من علينا وقنا عذاب السموم يا رحيم"[(٢)].

وكان –رحمه الله– كثير التلاوة لكتاب الله عزو وجل، وله ورد ثابت يحافظ عليه، فإذا دخل عليه شهر رمضان زاد في التلاوة، فعن يحيى بن نصر، قال: «ربما ختم أبو حنيفة القرآن في رمضان ستين مرة»[(٣)].

ومع ذلك كان الوجل والخوف يملأ قلبه، حاله حال من ذكرهم الله في كتابه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[(٤)] [المؤمنون: ٦٠].

وكان رضي الله عنه شديد التعظيم والإجلال لله رب العالمين، وكان يؤثر رضا ربه على كل شيء، قال يزيد بن كميت: سمعت رجلا يقول لأبي

---

(١) الذهبي، مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، جنة إحياء المعارف النعمانية، حيدر آباد الدكن بالهند، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ. ص٢١.

(٢) الذهبي، مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، ص٢٢.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة، ص٢٣.

(٤) جاء في سنن الترمذي، ٣٢٧/٥، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [المؤمنون: ٦٠] قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: " لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ [ص:٣٢٨] الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون: ٦١] ".

حنيفة: اتق الله! فانتفض واصفر وأطرق، وقال: «جزاك الله خيرا، ما أحوج الناس كل وقت إلى من يقول لهم مثل هذا!»[١] .

ومن ورعه رضي الله عنه أنه قد جعل عَلَى نفسه أن لا يحلف بالله في عرض كلامه إلا تصدق بدرهم، فحلف فتصدق بِهِ، ثُمَّ جعل عَلَى نفسه إن حلف أن يتصدق بدينار، فَكَانَ إِذَا حلف صادقًا في عرض الكلام تصدق بدينار[٢].

وكما كان رضي الله سليم القلب، كان عفيف اللسان، لا يقع في أعراض الناس، قال ابن المبارك: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة، ما سمعته يغتاب عدوًا له قط، قال: هو والله أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها[٣].

ما جاء في ذكر عبادة الإمام مالك وورعه:

كان الإمام مالك رضي الله عنه من العباد الزهاد الذين يخشون الله، وكان أكثر عبادته –رضي الله عنه– في السر بالليل والنهار حيث لا يراه أحد. كان إذا صلى الصبح جلس في مجلسه يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس لا يكلم أحدًا، ثم يقبل على حلقته.

وكان مالك –رضي الله عنه–يطيل الركوع والسجود في ورده وإذا وقف في الصلاة كأنه خشبة يابسة لا يتحرك منه شيء.

وقال ابن المبارك رأيت مالكًا فرأيته من الخاشعين، وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبينه، وذلك أني كثيرًا ما كنت أسمعه يقول: من أحب أن يفتح له فرجة في قلبه وينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة، فليكن في

(١) الذهبي، مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، ص٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٨.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٨٧/١٥.

عمله في السر أكثر منه في العلانية.

وكان رحمه الله يديم النظر في كتاب الله، يتلو آياته، ويتدبر معانيه، قال أبو بكر الأوسي كان مالك قد أدام النظر في المصحف قبل موته بسنين وكان كثير القراءة طويل البكاء.

وذات مرة قام يصلي–رضي الله عنه–، فلما فرغ من الحمد لله ابتدأ بـ"ألهاكم التكاثر" حتى بلغ "ثم لتسألن يومئذ عن النعيم" فبكى بكاءً طويلًا وجعل يرددها ويبكي، فلم يزل يرددها ويبكي حتى طلع الفجر[١].

وكان –رضي الله عنه– شديد التوقير والإجلال للنبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته. قال الإمام الشافعي–رضي الله عنه– رأيت بباب مالك كراعًا من أفراس خراسان وبغال مصر فقلت ما أحسنها! فقال هي هبة مني إليك.

فقلت دع لنفسك منها دابة تركبها.

قال أنا أستحي من الله أن أطأ تربة نبي الله –صلى الله عليه وسلم – بحافر دابة[٢].

كما شديد الإجلال لكلامه صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث، فقيل له في ذلك فقال: أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحدث به إلا متمكنًا على طهارة[٣].

(١) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ٥٠/٢.

(٢) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ٥٣/٢.

(٣)المرجع السابق، ١٥/٢.

الإمام الشافعي –رضى الله عنه–: ورعه وعبادته

قال حسين بن علي الكرابيسي: بت مع الشافعي ثمانين ليلة، فكان يصلي نحو ثلث الليل وما رأيته يزيد على خمسين آية –يعني في الركعة– وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ بالله وسأل الله النجاة لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات(١).

وقال الربيع بن سليمان: (كان الشافعي قد جزأ الليل ثلاثة أجزاء؛ الثلث الأول يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام)(٢).

قال الإمام الذهبي معلقًا: أفعاله الثلاثة عبادة بالنية(٣).

وأما عن حاله –رضي الله عنه مع القرآن، فيقول الربيع بن سليمان: كان الشافعي يختم القرآن ستين مرة. قيل له: في صلاة رمضان؟ قَالَ: نعم(٤).

ومن نوافل الإمام الشافعي رضي الله عنه: كثرة صلاته على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يحض على ذلك أصحابه وحضوره، فيقول: أحب أن تكثروا الصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. وقال المزنى: ما رأيت من العلماء من يوجب للنبي – صلى الله عليه وسلم – فى كتبه ما يوجبه الشافعي لحسن ذكره رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

وقال الشافعي فى القديم: إن الدعاء يتم بالصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتتمته بها. وقال الكرابيسي: سمعت الشافعي

---

(١) يحيى بن إبراهيم الأزدي السلماسي، منازل الأئمة الأربعة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، صـ٢٢٦.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ١٣٥/٩.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٤٨/٨.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٦١/٢.

يقول: يكره أن يقول الرجال: قال الرسول، لكن يقول: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؛ تعظيمًا له[١].

وقد أحسن الإمام الشافعي–رضي الله عنه–، فالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بركة لا تحد، ونور لا يخفت، نسأل الله تعالى ألا يحرمنا من بركاتها وأنوارها.

عبادة الإمام أحمد–رضي الله عنه– واتباعه للأثر:

كان الإمام أحمد رحمه الله تعالى على رأس الزهاد والعباد، دائم الصوم والصلاة، كان يصلي في اليوم ثلاثمائة ركعة، ولما ضعف أنزلها إلى مائة وخمسين ركعة، وكانت له ختمة في كل سبع ليال.

قال عبد الله بن الإمام أحمد: (كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته، فكان يصلي في كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة، وكان قرب الثمانين)[٢].

وقال: كان أبي يقرأ كل يوم سبعًا، وكان ينام نومة خفيفة بعد العشاء، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو[٣].

وكان–رضي الله عنه– شديد الاتباع للأثر، يقول: ما كتبت حديثًا إلا وقد عملت به، حتى مر بي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– احتجم، وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت[٤].

وعرف عنه–رضي الله عنه–أنه كان شديد الخوف والخشية لله تعالى، دائم الذكر للموت، إذا ذكر الموت أمامه خنقته العبرة، ويردف قائلًا:

(١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ٦٦/١.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ٩/ ١٨١.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢١٤/١١.

(٤) المرجع السابق، ٢١٣/١١.

الخوف يمنعني الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت، هان علي كل أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، ما أعدل بالفقر شيئا، ولو وجدت السبيل، لخرجت حتى لا يكون لي ذكر[١].

وكان –رحمه الله تعالى– لا يترك صوم الاثنين والخميس وأيام البيض إلى أن مات[٢].

وقال صالح بن الإمام أحمد بن حنبل: سمعتُ أبي يقول: حَججت خَمس حِجَج منها ثلاث راجلًا، أنفقت في إحدى هذه الحِجج ثلاثين درهمًا[٣].

ومن أجل من وصف الإمام أحمد في دينه وزهده أبو عمير بن عيسى بن محمد الرملي وذلك حين قال عن الإمام أحمد: رحمه الله تعالى عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، وبالصالحين ما كان ألحقه، عرضت له الدنيا فأباها والبدع فنفاها[٤].

وبعد هذه الإطلالة على هذا الجانب المضيء من حياة الأئمة الأربعة– أقصد الجانب الروحي والتعبدي– يمكن للمسلم أن يقتدى بهم في الآتي:

١– المحافظة على شعائر الإسلام الظاهرة، كإقامة الصلاة في المساجد، وإفشاء السلام للخواص والعوام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى الذي يصيبه بسبب ذلك.

٢–الإكثار من المندوبات الشرعية كتلاوة القرآن الكريم، مع التفكر في

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء،، ٢١٥/١١.

(٢) المرجع السابق، ٢٢٣/١١.

(٣) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، دار هجر ، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩ هـ، صـ٣٨٨.

(٤) المرجع السابق، صـ١٧٥.

معانيه، وذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وكذلك ما ورد من الدعوات والأذكار في آناء الليل والنهار، والمواظبة على نوافل العبادات من الصلاة والصيام والصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم–.

٣–دوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن وخشيته في الغيب والشهادة.

٤– الزهد في الدنيا والتقلل منها بالقدر الذي لا يضر بنفسه أو بعياله.

وإذا كان الاهتمام بالبناء الروحي مهم، فالجانب الأخلاقي لا يقل أهمية؛ لأنه دليل واضح على سمو التشريع الإسلامي، ولذا نورد الحديث عنه إن شاء الله تعالى، وذلك من خلال المبحث التالي:

المبحث الثالث

القدوة الحسنة عند الأئمة الأربعة في الجانب الأخلاقي وكيفية الاستفادة منها.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: أهمية الأخلاق في بناء القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: القدوة الحسنة عند الأئمة الأربعة في التخلي عن الأخلاق السيئة والتحلي بالأخلاق الحسنة وكيفية الاستفادة منها.

المطلب الأول: أهمية الأخلاق[١] في بناء القدوة.

للأخلاق في الإسلام مكانة عظيمة جدًّا، تظهر من وجوه كثيرة، نذكر منها ما يأتي:

أولًا: تعليل الرسالة بتقويم وإشاعة مكارم الأخلاق: جاء في الحديث الشريف عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)[٢].

ثانيًا: حسن الخلق من أكثر ما يرجح كفّة الحسنات يوم القيامة، كما في الحديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (إنَّ أَثقلَ ما يُوضَعُ في الميزانِ يومَ القيامةِ حُسنُ الخُلقِ)[٣].

ثالثًا: المؤمنون يتفاضلون في الإيمان، وأفضلهم في الإيمان أحسنهم أخلاقًا، كما قال –عليه الصلاة والسلام–: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا، أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)[٤].

رابعًا: حسن الخلق سبب في الفوز بالقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال –عليه الصلاة والسلام–: (نَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي

---

(١) الأخلاق جمع: خلق، والخلق في اللغة: الطبع والسجية. وفي اصطلاح العلماء – كما ذكر ذلك الإمام أبو حامد الغزالي، رحمه الله–: الخلق هيئة في النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية. الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، ٥٣/٣.

(٢) أخرجه الإمام البيهقي في سننه، كتاب الشهادات، باب: بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، ٣٢٣/١٠، حديث رقم (٢٠٧٨٢).

(٣) أخرجه الإمام الطحاوي في شرح مشكل الآثار، ٢٥٥/١١، حديث رقم (٤٤٢٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٣٦٤/١٢، حديث رقم (٧٤٠٢)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا...)[١].

خامسًا: سؤال النبي صلى الله عليه وسلم ربه أن يحسِّن خلقه ويهديه لأحسن الأخلاق، فكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي)[٢]، وكان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل قال: (اللهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، واصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ...)[٣]. ومعلوم أنه –صلى الله عليه وسلم– لا يسأل ربه تعالى إلا ما يحبه ويقربه إليه.

سادسًا: مدح الله –تعالى– رسوله الكريم –صلى الله عليه وسلم– بحسن الخلق، فقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. والله تعالى لا يمدح رسوله إلا بالشيء العظيم، مما يدل على عظيم منزلة الأخلاق في الإسلام.

سابعًا: توجيه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وحثهم على حسن الخلق، فعن أبي ذر –رضي الله عنه– قال: قال لي رسول الله –صلى الله عليه وسلم –: (اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)[٤].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٢٦٧/٢٩، حديث رقم (١٧٧٣٢). وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

(٢) أخرجه الإمام أبو يعلى الموصلي في مسنده، ٩/٩، حديث رقم (٥٠٧٥)، وقال الشيخ حسين سليم أسد: إسناده حسن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: ١٨٣/٢، حديث رقم (٨٠٣).

(٤) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، ٣٥٥/٤، حديث رقم (١٩٨٧)، وقال الإمام الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ثامنًا: صاحب الخلق الحسن يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، قال النبي – صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ)[١].

ولقد تخلق رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق كلها كما أمره ربه في القرآن الكريم، ولذلك لما سئلت أمنا السيدة عائشة –رضي الله عنها– عن خلقه –صلى الله عليه وسلم– قالت للسائل: " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] "[٢].

وعن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاصي، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥] وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَسْتَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ – قَالَ يُونُسُ: وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ – وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: " لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا "[٣].

ولذلك جذب–صلى الله عليه وسلم– الناس إليه جذبًا، يعرف صدقه

(١) أخرجه الإمام أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، ١٧٦/٧، حديث رقم (٤٧٩٨)، وقال وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٤٩/٤١، حديث رقم (٢٤٦٠٢)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٣)أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق، ٦٦/٣، حديث رقم (٢١٢٥).

من قسامة وجهه، من ينظر إليه يقول: هذا الوجه ليس بوجه كذاب. بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان المؤمن بحاجة إلى حسن الخلق؛ فإن القدوة أحوج الناس إلى حسن الخلق؛ إذ بحسن خلقه يقبل عليه الناس، ويستمعون له، ويقتدون به، ينتفعون بدعوته، ولذلك قال الله – تبارك وتعالى – للنبي –صلى الله عليه وسلم–: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا ما سار عليه الأئمة الأربعة رضي الله عنهم، فقد كانوا عنوانًا لحسن الخلق، وشهد لهم بذلك القريب والغريب، والصديق والعدو، وهذا ما يظهر جليًا خلال السطور الآتية.

المطلب الثاني
القدوة عند الأئمة الأربعة في التخلي عن الأخلاق السيئة والتحلي بالأخلاق الحسنة

عرف الأئمة الأربعة بسمو الخلق، والرقي في التعامل، واجتناب الرذائل، مما جذب إليهم القلوب وجمع حولهم الجماهير، وشهد لهم بذلك شيخوهم وتلاميذهم، والعوام والخواص، ومن الأخلاق الحسنة التي تخلقوا بها وتخلوا عن ضدها:

١- الصدق:

والصدق: مطابقة الحكم للواقع، وضدّه: الكذب، وهو عدم مطابقة الخبر للواقع(١).

والأدلّة من القرآن والسُّنّة على خُلق الصِّدق وفضْله كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقولّ الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا)(٢).

والمسلم القدوة ينبغي أن يتحلى بالصِّدق، ويكون في قوله وفعله مرآة

---

(١) الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، صـ١٣٢.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ٢١٣/٤، حديث رقم (٢٦٠٧).

صادقة لِما يأمر به ويدْعو إليه، لأنه مهما أوتي من الفصاحة والقدرة على تزويق الكلام وتحسينه لن يؤثر في القلوب والنفوس إلا بالصدق. فكلما كان القدوة صادقًا مع الآخرين كانت دائرة تأثيره أوسع.

والأئمة الأربعة-رضي الله عنهم-: عرف عنهم الصدق في اللهجة، ولم يؤثر عنهم الكذب في الحديث، أو الخلف في الوعد، بل كان الصدق في الحديث عنوانًا على صدقهم في النية والقصد.

وظهر هذا الصدق حتى في تعاملاتهم المادية مع الناس في البيع والشراء وما أشبه ذلك، ومما يؤثر في ذلك: ما ثبت عن الإمام أبي حنيفة-رضي الله عنه-، فقد كان شريكًا لحفص بن عبدالرحمن، وكان أبو حنيفة هو الذي يقوم بشراء البضاعة، فبعث إليه في رفقة بمتاع، وأعلَمه أن في ثوب كذا وكذا عيبًا، فإذا بعتَه فبيِّن هذا العيب، فباع حفصٌ المتاعَ ونسِي أن يبيِّن العيب، ولم يعلم من اشتراه، فلما علِم أبو حنيفة بذلك، تصدق بثمن المتاع كله[1].

وهذا من الصدق في المعاملة أن يبين البائع للمشتري العيوب التي في البضاعة، ولو ترتب على ذلك نقص في ثمنها، وذلك كما فعل الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه.

٢-التواضع :

إن تواضع العلماء دليل على سمو نفوسهم، وعظم شأنهم، وسعة علمهم، فالعلم النافع يحنى النفوس كما ينحني الغصن المثمر، ويتطاول الغصن الفارغ من الثمر، والله تعالى قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٨٧/١٥.

عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ)[١].

وليس معنى التواضع انحناء الرأس ولبس الخشن من الثياب، وإنما التواضع تواضع النفس من غير تكلف. ومما وقفت عليه من تواضع الأئمة الأربعة –رضي الله عنهم–، ما حصل من الإمام مالك رضي الله عنه، قال بشر بن عمر[٢]: "جئت مع مالك من منزله حتى دخل المسجد، فانتهى إلى جماعة فوسع لي في صدرها، فأبى وجلس حيث انتهى به المجلس، فقلت في نفسي: هذا رجل منصف، كنا لا نوسع لأحد في مجلسه –يعني مجلس الإمام مالك–لا يقعد في صدور مجالس الناس"[٣].

ومن التواضع: الخضوع للحق والرجوع إليه، وعدم الاعتداد بالرأي والتمسك به إذا تبين خطأه. وكان الإمام أبو حنيفة يقول: "قولنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا"[٤]. وقيل له: "يا أبا حنيفة، هذا الذي تفتي، والذي وضعت في كتبك، هو الحق الذي لا شك فيه؟ قال: فقال والله ما أدري لعله الباطل الذي لا شك فيه"[٥].

ومن التواضع: ألا يعجب المسلم بنفسه ويلاحظها بعين الكمال، وألا يعتبر نفسه غير مقصر، وأن عنده ما ليس عند غيره. وما أجمل ما

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٢١٩٨/٤، حديث رقم (٢٨٦٥).

(٢) بشر بن عمر: الإمام الحافظ الثبت أبو محمد الزهراني البصري، وثقه ابن سعد، وقال: توفي بالبصرة سنة سبع، ومائتين. انظر: سير أعلام النبلاء، ١٣٤/٨.

(٣) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ٥٧/٢.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٧٣/١٥.

(٥) المرجع السابق، ٥٤٤/١٥.

أثر عن الإمام أحمد بن حنبل في ذلك، قال المُروذي[١]: "وأَدخلتُ نصرانيًّا على أَبي عبد الله أحمد بن حنبل –رضي الله عنه–يُعالِجه، فقال: يا أَبا عبد الله، إِني أَشتهي أَن أَراك مُنذ سنين، وليس بقاؤك صلاحَ أَهل الإِسلام وحدَهم، بل هو للخلق جميعًا، وليس من أَصحابنا أَحد إِلا وقد رضي بك. قال المُروذي: فقلت لأَبي عبد الله: إِني لأَرجو أَن يكون يُدعَى لك في جميع الأَمصار، فقال: يا أَبا بكر؛ إِذا عَرَف الرجل نفسَه فما ينفعُه كلام الناس"[٢].

٣– السخاء والكرم:

قال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال –ﷺ – : (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)[٣].

إن هذه النصوص وغيرها مما ورد في الحث والترغيب على الإنفاق والجود أخذت بقلوب الأربعة، فجادوا بما في أيديهم وبذلوه بنفس طيبة على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم، ولم يشق عليهم ذلك ثقة بما عند الله تعالى، وطمعًا فيما وعد به من الأجر العظيم . كانت قلوبهم–رضي الله عنهم– نقية، ونفوسهم سخية.

---

(١) محمد بن نصر ابن الحجاج المروزي الإمام، شيخ الإسلام، أبو عبد الله الحافظ. مولده ببغداد، في سنة اثنتين ومائتين، ومنشؤه بنيسابور، ومسكنه سمرقند. كان أبوه مروزيا، ذكره الحاكم، فقال: إمام عصره بلا مدافعة في الحديث. (ت:٢٩٤). انظر: سير أعلام النبلاء، ٢٣/١١.

(٢) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، صـ٢٠٣.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، ١٠٩/٢، حديث رقم (١٤١٧). والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، ٧٠٤/٢، حديث رقم (١٠١٦).

كان الإمام أبو حنيفة ثري النفس لم يستول عليه الطمع، وكان سمحًا قد وقاه الله شح نفسه. كان كريمًا مع الشيوخ والأصحاب والتلاميذ والأهل والفقراء والضعفاء.

ومن مظاهر هذا الكرم: أنه –رضي الله عنه–كان لا يأتي عليه يوم إلا ويتصدق فيه، وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها، وكان إذا اكتسى ثوبًا جديدًا كسى بقدر ثمنه الشيوخ العلماء، وكان إذا وضع بين يديه الطعام أخذ منه، فوضعه على الخبز حتى يأخذ منه بقدر ضعف ما كان يأكل، فيضعه على الخبز ثم يعطيه إنسانًا فقيرًا، فإن كان في الدار من عياله إنسان يحتاج إليه دفعه إليه، وإلا أعطاه مسكينًا[1].

قال قيس بن الربيع: "كَانَ أَبُو حنيفة يبعث بالبضائع إلى بَغْدَاد، فيشتري بها الأمتعة ويحملها إلى الكوفة، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة، فيشتري بها حوائج الأشياخ المحدثين، وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم، ثُمَّ يدفع باقي الدنانير من الأرباح إليهم، فيقول: أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله، فإني ما أعطيتكم من مالي شيئا، ولكن من فضل الله عَليّ فيكم، وهذه أرباح بضائعكم، فَإِنَّهُ هُوَ والله مما يجريه الله لكم عَلَى يدي، فما في رزق الله حولٌ لغيره"[2].

فالإمام رضي الله عنه كان يقوم بما يشبه المنح الدراسية المجانية لطلبة العلم، فهو شريك لهم –إن شاء الله– في كل علم بثوه للأمة، وشريك لمن تعلم منهم في الأجر. فلم يكن الإمام رضي الله عنه مورثًا علمه فقط، بل ناشرًا للعلم متبرعًا سخيًا.

وأما عن سخاء الإمام الشافعي– رضي الله عنه–:

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٨٧/١٥.

(٢) الذهبي، مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، صـ٤٦.

فيقول الربيع: "كان الشافعي إذا سأله إنسان استحى من السائل وبادر بإعطائه، فإن لم يكن معه أرسل إليه إذا رجع. ولقد سمعنا بالأسخياء، وكان عندنا منهم قوم وما رأينا مثل الشافعي"(١).

ومن الوقائع التي تشهد على سخائه أنه رضي الله عنه قدم مرة من اليمن ومعه عشرون ألف دينار فضرب خيمته خارجًا من مكة فما قام حتى فرقها كلها(٢).

وقال الربيع: "كان الشافعي راكبًا على حمار، فمر على سوق الحدادين، فسقط سوطه من يده، فوثب إنسان فمسحه بكفه وناوله إياه، فقال لغلامه: ادفع إليه الدنانير التى معك، فما أدرى كانت سبعة أو تسعة"(٣).

وأدى به الإنفاق إلى الإفلاس، كما يحكي عن نفسه –رضي الله عنه–، فيقول: "أفلست من دهري ثلاث إفلاسات، فكنت أبيع قليلي وكثيري حتى حلي ابنتي وزوجتي ولم أرهن"(٤).

والإمام أحمد كان سخيًا كريمًا مع شدة فقره وحاجته، يجود بما في يده ولا يتكلف، وقع من يده مقراض في البئر، فجاء ساكن له فأخرجه، فلما أن أخرجه ناوله أبو عبد الله مقدار نصف درهم أو أقل أو أكثر فقال: "المقراض يسوي قيراطًا لا آخذ شيئًا. فخرج فلما كان بعد أيام قال له: كم عليك من كراء الحانوت قال: كراء ثلاثة أشهر، وكراؤه في كل شهر ثلاثة دراهم، فضرب على حسابه، وقال: أنت في حل"(٥).

---

(١) ابن حجر العسقلاني، توالي التأنيس بمعالي ابن إدريس لابن حجر، صـ١٥٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٠١/٥١.

(٣) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ٥٨/١.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٩٧/٥١.

(٥) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ١٧٩/٩.

لقد أصاب الأئمة الأربعة كبد الحقيقة، وعلموا حقيقة الدينا وأنها فانية، وأن ما عند الله خير وأبقى، وأن الإنفاق في سبيل الله تجارة رابحة، فطابت نفوسهم ببذل أموالهم في وجوه الخير والبر. فما أحوجنا إلى التأسي بهم في هذا الخلق النبيل، فالرابح من أخذ من دنياه لآخرته، وعمل في ماله لما بعد موته، والخاسر من خدعه ماله وأشرب حبه في قلبه، وجمعه وعدده، ولم ينفق منه ولم يطعم منه مسكينًا ولم يشكر نعمة ربه.

٤- الحلم:

الحِلم من الأخلاق التي حث عليها الإسلام، وهو يعني ضبط النفس عند الغضب وكفها عن مقابلة الإساءة بالإساءة، ويعني أيضًا الأناة والتريث والتثبت فى الأمور وترك الانتقام مع القدرة عليه، وهو خلاف الطَّيش، وهو من أوصاف عباد الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. وهو دليل كمال العقل، وسعة الصدر، والتحكم في النفس، وامتلاك زمامها.

والحلم من الخصال التي يحبها الله في البشر وفي المؤمنين خصوصًا، ففي الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأشج أشج عبد القيس: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ)[1].

وقد كان الأئمة الأربعة ضابطين لأنفسهم، مستوليين على مشاعرهم، لا تعبث بهم الكلمات العارضة، ولا تبعدهم عن الحق العبارات النابية. وقد سجلت سيرتهم أروع الأمثلة في الحلم والعفو، فهذا الإمام أبو حنيفة –رضي الله عنه–كان يقول: (اللهم من ضاق بنا صدره، فإن قلوبنا قد اتسعت

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، ٤٨/١، حديث رقم (١٧).

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٥/ ٤٧٣.

ويُروى أنه قال له بعض مناظريه: «يا مبتدع يا زنديق»، فقال: «غفر الله لك، الله يعلم مني خلاف ذلك، وإني ما عدلت به مذ عرفته، ولا أرجو إلا عفوه، ولا أخاف إلا عقابه»، ثم بكى عند ذكر العقاب، فقال له الرجل: «اجعلني في حل مما قلت»، فقال: «كل من قال في شيئاً من أهل الجهل فهو في حل، وكل من قال في شيئاً مما ليس في من أهل العلم فهو في حرج، فإن غيبة العلماء تُبقي شيئًا بعدهم»(١).

وجلس الإمام الشافعي يومًا في حلقة، فجاء غلام حدث فسأله عن مسألة فأجابه، ثم سأله عن أخرى فقال: أخطأت، فقال له الشافعي: أخطأت –يا ابن أخي– ما في كتابك، وأما الحق فلا(٢).

والأمثلة على تحلي الأئمة الأربعة بالحلم كثيرة، مما يحدونا إلى التخلق بهذا الخلق النبيل والتزين به في مواضعه، فعواقبه لصاحبه كلها خير، وهو مع ذلك يحمل المخاطبين على مراجعة أنفسهم، وتغيير مواقفهم، ويحملهم على الندم والتوبة.

٥–حسن العشرة والمخالطة.

لا يعني الجد والاجتهاد أن يكون المسلم القدوة خشنًا مع الناس، بعيدًا عنهم، زاهدًا في لقاءهم، قاليًا لاجتماعاتهم، هاجرًا لمناسباتهم، بل عليه أن يشاركهم في فرحتهم، ويواسيهم في مصيبتهم، ما دامت المناسبات خالية من الإسراف المذموم، خالية من المخالفات في وسيلة التعبير عن الفرح.

ولقد ضرب الأئمة الأربعة –رضي الله عنهم–أروع الأمثلة في هذا الجانب، فكانوا يخالطون الناس، ويعيشون بينهم، ويشاركونهم أفراحهم، ويواسونهم في أحزانهم، ويسألون عن أحوالهم، ويتفقدون جيرانهم.

(١) الحسين بن علي، أبو عبد الله الصَّيْمَري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، صـ٤٨.
(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق. ٥١/٣٩٠.

كان للأمام أبي حنيفة–رضي الله عنه– جار بالكوفة إسكاف يعمل نهاره أجمع، حَتَّى إذا جنه الليل رجع إلى منزله، وقد حمل لحمًا فطبخه، أَوْ سمكة فيشويها، ثُمَّ لا يزال يشرب حَتَّى إِذَا دب الشراب فيه غنى بصوت، وَهُوَ يَقُولُ:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هَذَا البيت حَتَّى يأخذه النوم، وَكَانَ أَبُو حنيفة يسمع جلبته كل يوم، وَكَانَ أَبُو حنيفة يصلي الليل كله، ففقد أَبُو حنيفة صوته، فسأل عَنْهُ، فَقِيلَ: أخذه العسس منذ ليال وَهُوَ محبوس، فصلى أَبُو حنيفة صلاة الفجر من غد، وركب بغلته، واستأذن عَلَى الأمير قَالَ الأمير: ائذنوا لَهُ، وأقبلوا بِهِ راكبا ولا تدعوه ينزل حَتَّى يطأ البساط، ففعل، فلم يزل الأمير يوسع لَهُ من مجلسه، وَقَالَ: ما حاجتك؟ قَالَ: لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال، يأمر الأمير بتخليته، فَقَالَ: نعم، وكل من أخذ في تِلْكَ الليلة إلى يومنا هَذَا، فأمر بتخليتهم أجمعين، فركب أَبُو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه، فَلَمَّا نزل أَبُو حنيفة مضى إِلَيْهِ، فَقَالَ: يا فتى، أضعناك؟ فَقَالَ لا، بل حفظت ورعيت، جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان[1].

وكان الإمام مالك– رضي الله عنه– يأتي المسجد، ويشهد الصلاة والجمعة والجنائز، ويعود المرضى ويقضي الحقوق، ويجلس في المسجد ويجتمع إليه أصحابه[2].

والامام أحمد–رضي الله عنه– كان يشارك الناس في احتفالاتهم الاجتماعية مثل الزواج والختان. قال المرّوذي: رأيت أبا عبد الله قد ألقى

(١) الحسين بن علي، أبو عبد الله الصَّيْمَري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، ص٥٢.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٣٦/٤.

لختَّانٍ درهمين في الطست[١].

٥- الصبر

إن هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار، أكد الله -سبحانه وتعالى- على ذلك في أكثر من آية في كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١

كما أخبر صلى الله عليه وسلم أن أهل الدعوة السائرين على طريق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يسلمون من الابتلاء، فقد سئل صلى الله عليه وسلم عن أشد الناس بلاءً، فكان الجواب: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[٢].

فالقدوة الحسنة عرضة للبلاء؛ لذا يلزمه الصبر على تكاليف الدعوة، ويلزمه الصبر على المدعوين، وتحمل أذاهم.

والأئمة الأربعة كانوا من أشد الناس صبرًا على أداء التكاليف وتحمل الأذى في سبيل تبليغ الدعوة وأداء الرسالة.

ومن الأمثلة الواضحة في ذلك صبر الإمام أحمد -رضي الله عنه- في الفتنة[٣]، قال زهير بن حرب: «ما رأيت مثل أحمد بن حنبل أشد قلبا

---

(١) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، صـ٢٩٨.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٦٠١/٤، حديث رقم (٢٣٩٨)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) أعني: "فتنة القول بخلق القرآن"، فقد ترتبت على قول المعتزلة فى الصفات بأن كلام الله مخلوق لأنه مركب من حروف ويحدث فى الزمان ولا يمكن إضافته إلى ذاته تعالى فتشاركه فى القدم. ترتب على مغالاة المعتزلة فى هذا القول وتماديهم فى =

منه أن يكون، قام ذلك المقام، ويرى ما يمر به من الضرب والقتل، وما قام أحد مثل ما قام أحمد؛ امتحن كذا كذا سنة، وطلب فما ثبت أحد على ما ثبت عليه»[(١)].

سابعًا: الرفق

من الأخلاق التي يجب أن يتخلق بها المسلم: الرفق، وهو لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف. وفي الحديث: عن أم المؤمنين السيدة عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ)[(٢)].

ولقد امتن الله -سبحانه وتعالى- على نبيه محمد -ﷺ- بما حباه من الرأفة والرفق، فقال عز من قائل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فيجب على القدوة أن يتحلى بالرفق؛ لأن الرفق هو أقرب الطرق إلى

=

محاولة إجبار علماء السنة على القول بخلق القرآن ما نعرفه فى التاريخ بمحنة الإمام أحمد بن حنبل فى زمن المعتصم إلى أن جاء الخليفة المتوكل ونصر أهل السنة وحرم القول بخلق القرآن. انظر: موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، صـ٢٦٧.

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ١٧١/٩.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ٢٠٠٣/٤، حديث رقم (٢٥٩٣).

القلوب، وأهم أسباب القبول.

والأئمة الأربعة كانوا من أرفق الناس، والدليل على ذلك: التفاف الجماهير وطلبة العلم حولهم، فقد كانوا يعلمون وينصحون ويرشدون، كل ذلك برفق وأدب، فوجد الناس فيهم بغيتهم، وأدركوا غايتهم، ولو كانوا فظاظًا غلاظًا لانفض الناس من حولهم، وما بقي شيء من علمهم، ولا حفظ أثرهم، ولكن سيرتهم العطرة على الألسنة في كل زمان ومكان تشهد على رفقهم، ولين جانبهم، وسمو خلقهم.

فعلى المسلم القدوة أن يتحلى بمكارم الأخلاق من الصدق، والتواضع، والكرم، وكف الأذى عن الناس، واحتماله منهم، والسعي في قضاء الحاجات، وبذل الجاه في الشفاعات، والتلطف بالفقراء، والتحبب إلى الجيران والأقرباء، والإرشاد بلطف ورفق.

والقدوة الحسنة والمثل الأعلى في ذلك كله: نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، ومن سار على نهجه من الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل الصلاح والفلاح، جعلنا الله منهم.

وبعد الانتهاء بفضل الله تعالى من أبحاث هذه الدارسة، يأتي الدور على الخاتمة التي تشتمل على أهم النتائج والتوصيات .

الخـــاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله وجوده وكرمه تدرك الآمال والغايات، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وسلم، وبعد:

فمن المناسب في ختام هذه الدراسة الموسومة بـ(جوانب القدوة الحسنة في حياة الأئمة الأربعة وكيفية الاستفادة منها)، أن أذكر أهم نتائج الدراسة وتوصياتها.

أولًا: نتائج الدراسة:

١-إن الله عز وجل الذي تكفل بحفظ الإسلام هيأ لنبيه ﷺ أصحابًا وأنصارًا حملوا الأمانة من بعده ورعوها حق رعايتها، ثم سار التابعون لهم بإحسان على طريقتهم ومنهجهم، وكانوا قدوة لغيرهم، ومن هؤلاء الذين حملوا الأمانة وبذلوا جهدهم وحياتهم في سبيلها: الأئمَّةُ الأربعة- رحمهم الله-، وهم: (الإمام أبو حنيفة، الإمام مالك، الإمام الشافعي، الإمام أحمد ابن حنبل).

٢-كان الأئمَّةُ الأربعة -رضي الله عنهم-قدوة حسنة في جوانب متعددة، قدوة حسنة في تلقيهم العلم وتعليمه، وقدوة حسنة في الزهد، والتعبد، والورع، والتقوى، والتعفف، وقدوة حسنة في نصحهم ودعوتهم إلى الله تعالى. كانوا قدوة للعلماء والجمهرة، الخاصة والعامة على وجه سواء.

٣-هناك منهجية سديدة في تلقي العلم، لا بد وأن يسير عليها طالب العلم ولا يتجاوزها، وهذه المنهجية مستفادة من النصوص القرآنية والتوجيهات النبوية، والأئمة الأربعة لم يتجاوزا هذه المنهجية، بل التزموها منذ بداية طلبهم للعلم وانشغالهم به، مما جعلهم أهلًا للاقتداء بهم في رحلتهم العلمية.

٤-الأئمة الأربعة كانوا أبعد الناس عن السمعة والرياء وحب الشهرة

والظهور، ولم يعلم أنهم تعصبوا لآرائهم، وكل هذا دليل على الإخلاص وحسن النية وسلامة القصد، وقد كافأهم الله تعالى، فكتب لهم القبول بين الناس، ونشر علمهم في المشرق والمغرب.

٥-حرص الأئمة الأربعة على تلقى العلم عن العلماء الراسخين والأئمة النابهين، ولم يركنوا إلى الصحف يتعلموا منها، أو من ليسوا بأهل للتلقي عنهم.

٦-لم تكن حياة الأئمة الأربعة إلا صفحة مشرقة من صفحات الصبر والتضحية والمصابرة في طلب العلم

٧-مع تفرغ الأئمة الأربعة للعلم والإقبال على العبادة والزهادة في الدينا، إلا أنهم كانوا يعتنون بمنظرهم وهيئتهم، ويعلمون مدى تأثير المنظر على الحضور؛ لأن الناس بطبيعتهم ينجذبون إلى كل ما هو حسن وجميل، وهذا أدعى للقبول والتأثير.

٨-اشتهر الأئمة الأربعة-رضي الله عنهم- بقوة الحجة، وبدا ذلك واضحًا من خلال فتاويهم وإجاباتهم عن المسائل ومراعاتهم لأحوال المخاطبين، ومن أكثرهم شهرة في هذا الباب حتى صار يضرب به المثل في الذكاء والفطنة وقوة الحجة والبرهان: الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه.

٩-كان الأئمة الأربعة -رحمهم الله- على قدر كبير من يقظة الروح واشتعالها، وسموها وارتقاءها في أعلى الدرجات، وكانوا من أزهد الناس في الدنيا، وأكثرهم طاعة وذكرًا لله تعالى، وأشدهم اجتهادًا في العبادة.

١٠-عرف الأئمة الأربعة بسمو الخلق والرقي في التعامل، مما جذب إليهم القلوب وجمع حولهم الجماهير، وشهد لهم بذلك شيخوهم وتلاميذهم، والعوام والخواص، ومن هذه الأخلاق الحسنة التي تخلقوا بها وكانوا فيها قدوة: الصدق في اللهجة، فلم يؤثر عنهم الكذب في الحديث،

أو الخلف في الوعد، بل كان الصدق في الحديث عنوانًا على صدقهم في النية والقصد.

١١-لقد كان الأئمة الأربعة ضابطين لأنفسهم، مستوليين على مشاعرهم، لا تعبث بهم الكلمات العارضة، ولا تبعدهم عن الحق العبارات النابية. وقد سجلت سيرتهم أروع الأمثلة في الحلم والعفو.

١٢-الأئمة الأربعة كانوا من أشد الناس صبرًا على أداء التكاليف وتحمل الأذى في سبيل تبليغ الدعوة وأداء الرسالة.

١٣-الأئمة الأربعة كانوا من أرفق الناس، والدليل على ذلك: التفاف الجماهير وطلبة العلم حولهم، فقد كانوا يعلمون وينصحون ويرشدون، كل ذلك برفق وأدب، وسيرتهم العطرة على الألسنة في كل زمان ومكان تشهد على رفقهم ولين جانبهم وسمو خلقهم.

١٤-لقد ضرب الأئمة الأربعة -رضي الله عنهم- أروع الأمثلة في حسن المخالطة والمعاشرة، فكانوا يخالطون الناس، ويعيشون بينهم، ويشاركونهم أفراحهم، ويواسونهم في أحزانهم، ويسألون عن أحوالهم، ويتفقدون جيرانهم.

ثانيًا: التوصيات بإذن الله تعالى:

١-أوصي بمزيد الاهتمام بسيرة الأئمة الأربعة، والتركيز على جوانب القدوة فيها، وذلك من خلال المحاضرات، والندوات الثقافية، والدروس التعليمية، وغرس سمات القدوة الحقيقية في النشء، وتأهيلهم ليكونوا قدوة حسنة لغيرهم.

٢-أوصي كل مسلم ولا سيما الداعية إلى الله تعالى بأن يكون قدوة حسنة للناس، كما كان الأئمة الأربعة -رضي الله عنهم-، كما أوصي بالمحافظة على شعائر الإسلام الظاهرة، والإكثار من المندوبات الشرعية، مع دوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن، وخشيته في

الغيب والشهادة، والتحلي بمكارم الأخلاق من الصدق، والتواضع، والكرم، وكف الأذى عن الناس، واحتماله منهم، والسعي في قضاء الحاجات، وبذل الجاه في الشفاعات، والتلطف بالفقراء، والتحبب إلى الجيران والأقرباء، والإرشاد بلطف ورفق.

وفي الختام...أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل مني هذه الدراسة، وأن يتجاوز عن عيبي وتقصيري، وأن يَجعلني بما علمتُ عاملًا، ولوجِهه به مريدًا، وألا يجعله وبالاً عليّ، وأن يضعَه في ميزان الصالحات، إذا رُدَّتْ أعمالي إليّ، إنَّه جواد كريم.

وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وسلم والحمد لله رب العالمين

المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

١-ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢-ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، دار هجر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩ هـ.

٣-ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، مكتبة مشكاة الإسلامية.

٤-ابن حجر العسقلاني، توالي التأنيس بمعالي ابن إدريس، دار ابن حزم، الطبعة: الأولى ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٥-ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

٦-ابن حجر الهيتمي، الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، مطبعة السعادة، القاهرة.

٧-ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، دار الفكر-بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٨-ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم، دار الكتب العلمية - بيروت.

٩-ابن عبد البر، جامع بيان العلم، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

١٠-ابن عساكر، تاريخ دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١١-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

١٢-أبو داود السِّجِسْتاني، سنن أبي داود، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
١٣-أبو عبد الله الصَّيْمَري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
١٤-أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
١٥-الآجري، أخلاق العلماء، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية.
١٦-أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله، مسند الإمام أحمد، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
١٧-البحث العلمي أساسياته وممارسته العملية، رجاء وحيد دويدي، دار الفكر المعاصر.
١٨-البيهقي، مناقب الشافعي، مكتبة دار التراث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.
١٩-الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
٢٠-الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٢١-الحصفكي، الدر المختار، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٦هـ.
٢٢- حلمي عبد المنعم صابر، مناهج البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، مكتبة الإيمان، ط٢- ١٤٣٥هـ -٢٠١٤م.
٢٣-الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، دار ابن الجوزي، ١٤٢١هـ.

٢٤-الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢ م.
٢٥-الذهبي، تاريخ الإسلام، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م .
٢٦-الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨.
٢٧-الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
٢٨-الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، ط١ – ١٤١٢هـ.
٢٩-الزهد لابن أبي الدنيا، دار ابن كثير، دمشق ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.
٣٠-عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مكتبة وهبة، ط٨، ١٩٨٢.
٣١-الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت.
٣٢-الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية – بيروت.
٣٣-القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب.
٣٤-الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.
٣٥-محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه(صحيح البخاري)، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق مصطفى البغا.

٣٦-محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، سنن الترمذي، ١٣٩٥هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٣٧-محمد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، مطبعة خالد الطرابيشي، ١٣٤١هـ.

٣٨-محمد عوامة، أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين.

٣٩-مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-،(صحيح مسلم)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، ب-ت.

٤٠-مصطفى الشكعة، الأئمة الأربعة، دار الكتاب المصري القاهرة، ط٣، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٤١-المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى.

References:

al8ran alkrym.

1-abn algozy, sfa alsfoa, dar al7dyth ،al8ahra ،msr, al6b3a: 1421h**2000/**.m.

2-abn algozy, mna8b al emam a7md, dar hgr, al6b3a: althanya ،1409 h..

3-abn gma3a, tzkra alsam3walmtklm fy adb al3almwalmt3lm, mktba mshkaa al eslamya.

4-abn 7gr al3s8lany, toaly altanys bm3aly abn edrys, dar abn 7zm, al6b3a: alaoly 1429 h**2008 – .** m.

5-abn 7gr al3s8lany, ft7 albary shr7 s7y7 alb5ary, dar alm3rfa - byrot ،1379h.

6-abn 7gr alhytmy, al5yrat al7san fy mna8b al emam ala3zm aby 7nyfa aln3man, m6b3a als3ada, al8ahra.

7-abn 3abdyn, rd alm7tar 3la aldr alm5tar, dar alfkr-byrot, al6b3a: althanya ،1412h**1992 – .**m.

8-abn 3bd albr, alant8a2 fy fda2l althlatha ala2ma alf8ha2 malkwalshaf3ywaby 7nyfa rdy allh 3nhm, dar alktb al3lmya – byrot.

9-abn 3bd albr, gam3 byan al3lm, dar abn algozy ، almmlka al3rbya als3odya, al6b3a: alaoly ،1414 h **– . 1994** m.

10-abn 3sakr, tary5 dmsh8, dar alfkr ll6ba3awalnshrwaltozy3, 1415 h**1995 – .** m.

11-abn mnzor, lsan al3rb, dar sadr – byrot, al6b3a: althaltha - 1414 h..

12-abo daod alsğsŧany, snn aby daod, almktba al3srya ، syda – byrot.

13-abo 3bd allh alsẏ̇mŕy, a5bar aby 7nyfawas7abh, al6b3a: althanya ،1405h**1985 – .**m

14-abo n3ym, 7lya alaolya2w6b8at alasfya2, m6b3a als3ada, bgoar m7afza msr ،1394h**1974 – .**m.

15-alagry, a5la8 al3lma2, r2asa edarat alb7oth al3lmyawal efta2wald3oawal ershad – als3odya.

16-a7md bn m7md bn 7nbl bn hlal bn asd alshybany ،abo 3bd allh ،msnd al emam a7md ،alm788: sh3yb alarn2o6 - 3adl mrshd،wa5ron ،m2ssa alrsala ،61 ،1421 h**2001 – .** m .

17-alb7th al3lmy asasyathwmmarsth al3mlya, rga2w7yd doydy, dar alfkr alm3asr.

18-albyh8y, mna8b alshaf3y, mktba dar altrath – al8ahra, al6b3a: alaoly ،1390 h**1970 – .** m.

19-algrgany, alt3ryfat, dar alktb al3lmya byrot –lbnan, al6b3a: alaoly 1403h**1983– .**m.

20-algohry, als7a7 tag allghaws7a7 al3rbya, dar al3lm llmlayyn – byrot, al6b3a: alrab3a 1407 h**1987 – .** m.

21-al7sfky, aldr alm5tar, dar alfkr, byrot, 1386h.

22- 7lmy 3bd almn3m sabr ،mnahg alb7th al3lmywdoab6h fy al eslam ،mktba al eyman ،62-1435h**2014– .**m.

23-al56yb albghdady, alf8yhwalmtf8h, dar abn algozy, 1421h**..**

24-al56yb albghdady, tary5 bghdad, dar alghrb al eslamy – byrot, al6b3a: alaoly ،1422h**2002 – .** m.

25-alzhby, tary5 al eslam, dar alghrb al eslamy, al6b3a: alaoly ،2003 m .

26-alzhby, tzkra al7faz, dar alktb al3lmya byrot-lbnan, al6b3a alaoly 1419h**1998 –.**.

27-alzhby, syr a3lam alnbla2, m2ssa alrsala, al6b3a : althaltha ،1405 h**1985 / .** m.

28-alraghb alasfhany, almfrdat fy ghryb al8ran, alm788: sfoan 3dnan aldaody, dar al8lm ،byrot, 61 - 1412h**..**

29-alzhd labn aby aldnya, dar abn kthyr ،dmsh8 ,al6b3a: alaoly ،1420 h**1999 – .** m.

30-3bdalbas6 m7md 7sn, asol alb7th alagtma3y ، mktbawhba ،68 ،1982.

31-alghzaly, e7ya2 3lom aldyn, dar alm3rfa – byrot.
32-alfyomy, almsba7 almnyr fy ghryb alshr7 alkbyr, almktba al3lmya – byrot.
33-al8ady 3yad, trtyb almdarkwt8ryb almsalk, m6b3a fdala - alm7mdya ،almghrb.
34-almaordy, adb aldnyawaldyn, dar mktba al7yaa, 1986m.
35-m7md bn esma3yl abo 3bd allh alb5ary alg3fy ، algam3 almsnd als7y7 alm5tsr mn amor rsol allh –sly allh 3lyhwslm-wsnnhwayamh(s7y7 alb5ary) ،dar 6o8 alngaa ،61 ،1422h ـ،t78y8: m7md zhyr bn nasr alnasr ، shr7wt3ly8 ms6fy albgha.
36-m7md bn 3ysy bn so̓ra bn mosy bn ald7ak ،altrmzy ، abo 3ysy ،snn altrmzy ،1395h ،ـt78y8: a7md m7md shakrwa5ron ،shrka mktbawm6b3a ms6fy albaby al7lby ،msr ،62 ،1395 h**1975 – .** m.
37-m7md zyan 3mr ،alb7th al3lmy mnahghwt8nyath, m6b3a 5ald al6rabyshy, 1341h.
38-m7md 3oama, adb ala5tlaf fy msa2l al3lmwaldyn.
39-mslm bn al7gag abo al7sn al8shyry alnysabory ، almsnd als7y7 alm5tsr bn8l al3dl 3n al3dl ely rsol allh -sly allh 3lyhwslm-،(s7y7 mslm) ،t78y8: m7md f2ad 3bd alba8y ،dar e7ya2 altrath ،byrot ،b-t.
40-ms6fy alshk3a, ala2ma alarb3a, dar alktab almsry al8ahra, 63, 1411h-1991m.
41-almnaoy, alto8yf 3la mhmat alt3aryf, 3alm alktb, al8ahra, al6b3a: alaoly.